بسم الله الرحمن الرحيم

جرجس الماردينـي

بادن باول

الجندي والكشاف

جميع الحقوق محفوظة للمطبعة الكاثوليكية

10 أيار سنة 1958

الفهرسة

القسم الأول: بادن باول الجندي		القسم الثاني: بادن باول الكشاف	
مقدمة	01	عهد الانطلاق	89
بادن باول	02	الطلائع	100
الحداثة والدراسة	07	عهد التنظيم	115
الهند	17	الحرب الكبرى	129
أفريقيا	26	عهد الازدهار	143
في سبيل الطلائع	43	الرجل في حياته الخاصة	160
مافكنج	49	الجولة على طرق العالم	166
الشرطة الأفريقية	72	السنون الأخيرة	172
مفتش الخيالة	89	الكلمات الأخيرة	180

بادن باول

"ذكرى الفتى عمره الثاني . . . " المتنبي

اسم على شفة كل شاب، يلهج به بحب، ويكاد يتغنى به تغنيا ،كأنه الأنشودة ،أو الأسطورة

أو كأنه أحدى ملاحم الدهر، تجاوبتها أقطار الأرض، ورددتها الأجيال المدوية بها، مالئة بها الأسماع والأذهان

اسم لم يمت بموت صاحبه ولن يموت لان التاريخ وهو الديان العادل ،خلده في الحياة

انه يعيش الآن بيننا عمره الثاني، ذلك الذي لا يحده زمان ولا مكان، فيقصع بقرون، ويقطع الحدود ويملأ الدنيا

عمره الثاني يعيش فيه أجيال الأحداث والشباب، يسير مواكبهم في طرق الحياة، ينفخ فيهم من روحه، يسمو بهم في مرتبة الأبطال، وفي المغامرة الشائقة التي يعيشونها، ويعيشها معهم ، كل يوم ، في صميم الحياة

القسم الأول

بادن باول الجندي

الحداثة والدراسة

ينـــتمي بـــادن باول إلى عائلة من عائلات بريطانيا العريقة في القدم وأننا لا نذكر عن الأجداد منها، لضـــيق المقـــام، إلا هذه الكلمة لأحدهم، هو جون باول، كتبها لابنه داود عندما تزوج: إنها برنامج عمل، وشعار حياة ،قال:

"أعلمنا ،حالما تستأجر دارا لسكناك، حتى نرسل إليك بعض المؤن، واني لأمل أن أجد، في وقت ليس ببعيد، سريرا لطفل، في دارك وأسال الله أن يبارككما، ويمنحكما أن تقولا يوما، بعد ثلاث وثلاثين سنة" ما نقوله الآن، أنا وأمك: إننا عشنا، بفضل الله ونعمته، في أتم وفاق ورخاء"

تـــزوج داود هـــذا من سوسنة بادن، فظهر لأول مرة اسم بادن مقرونا باسم باول، وذلك في القرن الثامن عشر ،في مستهله

ونتخطى هنا عددا من الجدود، لنصل إلى أبي بادن باول ، واسمه هنري جورج بادن باول

ولد أبوه عام 1796،ودرس في أكسفورد، وعين راعيا للكنيسة بلومشتت، ثم أستاذا للرياضيات في جامعـــة أكســـفورد، وكـــان من علماء زمانه،وهو أول من نادى بإدخال العلوم الطبيعية في دروس الجامعـــة، وكان من الذين لا يرون في تقدم العلم من خطر على الديانة، وكان في حياته الداخلية من خيرة الرجال ،ولقد كتب عنه ابنه بادن باول ،عام 1915 مايلي:

".بمـــوت أمـــي انتهى دفتر يوميات أبي إلي، وهذا الدفتر الثمين يطلعني، بأقواله ،ورسومه، وحوادثه، أحســـن إطـــلاع، عـــلى مـــا كان عليه أبي من حياة عملية، هي الحياة ذاتها التي لا ننفك نحببها إلى الكشاف: من الذهاب إلى الله عن طريق المحبة وليس عن طريق الخوف، ومن التمسك بالعقيدة والمبدأ تمســـك الرجال الأشداء، ومن التحلي الفضائل الراهنة، ومن شغف يدرس الطبيعة، ومن حديث فكه وروح مـــرحة، ومـــن عطف على الغير، ومن محبة للعائلة، مما أجد له الأثر البليغ في كل صفحة من يومياته"

تزوج أبوه ثلاثا، ماتت الزوجة الأولى باكرا دون أن تنجب له أولادا، وماتت الثانية هي أيضا باكرا بعـــد أن تركت له ابنا وابنتين، أما الثالثة واسمها هنريت كريس سميث، ابنة الأميرال وليم سميث، فقد ولـــدت له عشرة أولاد، مات ثلاثة منهم في سن الحداثة، وعاش الباقون طويلا، وقد تقلبوا في مختلف وظائف الدولة والمجتمع، احتلوا منها ارفع المناصب ،وكان اشهرهم بادن باول

ولا بـــأس من كلمة عن أبيها وأمها، وهما جدا بادن باول ، وقد كان لهما عليه، بحياتهما ومثلهما ، التأثير الأكبر

أمـــا أبوها فكان أميرال البحر، وقد أصدر في علم الفلك أبحاثا قيمة فتحت له عنوة أبواب الأكاديمية الملكية،وكان شديدا على نفسه، لا يترك ساعة من أوقاته تذهب سدى، ويؤثر عنه قوله:" ليس المرء بحاجـــة إلى أكثر من خمس ساعات من النوم" وقد أصدر عددا كبيرا من التأليف العلمية كان أولاده، عندما بلغوا مبلغا من العمر، يصححون أوراقها، فينفحهم عن كل خطأ مطبعي يجدونه فيها قطعة من النقود هي لهم مصروفهم الخاص

وأمـــا أمهـــا فكانـــت مولعة بالفنون الجميلة فكانت مرهفة الحس والشعور ،صادقة الذوق والنظرة، واســـعة الثقافة والإطلاع، ولا عجب أن يرث الأولاد من أمهم ميلها إلى الفنون ،ومن أبيهم ميله إلى العلوم والمعارف

كان مولد بادن باول ،في 22 شباط عام 1857 في لندن، ومات أبوه وله من العمر ثلاث سنوات، فقامـــت أمـــه بأعباء العائلة الكبيرة : بأولادها السبعة، وكان لأكبرهم ثلاثة عشر عاما، ولأصغرهم شهرا واحد، ثم بأولاد زوجها الثلاثة، وكان للكبرى منهم اثنان وعشرون عاما

لم يقتصر عملها ،بعد موت زوجها على أسباب العيش توفرها لهم وتنظمها بل قامت بما هو اشق لقد قامـــت بتربية أولادها وتهذيبهم على الطرق المحببة إلى زوجها، إذ كان يأخذهم إلى الحقول ليسرحون فـــيها ويمرحون، ويتحدث معهم عن حياة الحيوان والنبات، ويأذن لهم باللعب في مكتبه يعبثون بكتبه ومجموعاتـــه دون أن يمد إليهم يدا، ويطرحون عليه من الأسئلة ما يعن لهم، فيجيب عليها مهما كان غارقا في الكتابة

ولـــيس من عجب أن تستلهم امرأته ، في تربية أولادها ،مثل هذه الأساليب، فيقضون من الوقت في الهـــواء الطلـــق أكـــثر ممـــا يقضـــون في مطالعة الكتب داخل جدران أربعة فيدرسون في الحقول الطبيعـــية،ينظرون ،ويلاحظون، ويستفهمون، ويتأملون ،وفي البيت يصرفون الجهد في كل ما يرهف الذوق ،وينبه الشعور، وينمي الحواس

وكـــان البيـــت مجتمعا لأهل الفن والأدب، وقد صعد الكاتب روسكين يوما إلى غرفة الأولاد ليرى كـــيف يلهون، فوجد احدهم يقرأ في كتاب عن النجوم، ورأى بادن باول يرسم ،وأبدت ألام قلقها لما درج عليه ابنها من استعمال كلتا اليدين على السواء ، فأجابها روسكين:

اتركيه وشأنه يرسم كما يخطر له ، وكما يهوى

ولقـــد برع بادن باول حقا في استعمال كلتا يديه، فكان يرسم بالواحدة ويلون بالأخرى، أو يرسم صورتين مختلفتين في أن واحد، ولم يكن من السهل التمييز بين ما كتبه باليمنى وما كتبه باليسرى

دخـــل، عام 1870 ،مدرسة شارتر هوس الشهيرة وكان لرئيسها ،الدكتور هايك برون، مكانة في عالم التربية، وانه حقا لنابغة في التربية، استنبط فيها طرقا لا تزال إلى اليوم قائمة، اكتسب بادن باول منها بعضها ، فطبعته بطابعها الخاص، وكان لها على الكشفية وأساليبها الفضل الكبير

كان الدكتور برون يعتمد في تربيته على الإنسان ذاته، وعلى إرادته، فيترك للتلاميذ مجال الحيوية، ما استطاع ،يعلمهم كيف يستعملون الاستعمال الحسن، ضمن نطاقها المشروع، وفي حدود مسؤولياتها، وكـــان يـــدرس طـــباع كـــل تلميذ على حدة، بمفرده لاعتقاده أن كل تلميذ يختلف عن غيره كل الاختلاف،ويكون شخصا فريدا، مستقلا، و لم يكن يستحث الهمم في الدروس العقلية بمقدار ما كان يوجه الحياة كلها في سبيل القويم الصحيح

ولـــنلق هنا نظرة على تلميذنا، في ذلك العهد من دراسته، انه فتى ربع القامة ، احمر الشعر، دو عينين حادتين،ثاقبتين، يستلب بهما القلوب، وكان يحب كل رفاقه، دون أن يصطفي له منهم صديقا خاصا يـــنفرد به، لبعض الانكماش في طبعه، وبعض الغرابة في أطواره، فكأنه فريد نسجه، وكان يبدو فتى مـــرحا، لعوبـــا، ذا نكتة وطرفة، حاضر الخاطر، سريع الجواب، و لم يكن بذي تفوق على أقرانه في المدرسة، حتى أن رئيسه دون بأنه في سجل علاماته هذه الملاحظة الدقيقة:" إن إمكانياته لتفوق مأتية أعمالـــه من نتيجة" وكان يشترك في كل الألعاب، إلا أن لعبته المفضلة كانت كرة القدم، ومع ذلك فانـــه لم يبرز فيها، كما انه لم يبرز في أية لعبة غيرها، مما جعله في مأمن من الدهن و الزلفى، يتعرض لهما كل ذي شأن في أمر، وكل مجل في ميدان

إلا انـــه كان يعنا عن ذلك بفن التمثيل، فكان هوايته المحببة، وقد بدأ يتمرس فيه بين ذويه في البيت، وبلغ به الأوج في المدرسة، فكان حقا بارع التمثيل ،والتقليد، والمحاكاة، وكل ما إلى ذلك، لا يجاريه فيها من أقرانه احد، وكان الدكتور برون، ولفيف المعلمين ونسائهم يهيئون للتمثيل وهم جميعا اشد ما يكونون ولعا بهذا الفن، وإيمانا بفائدته التربوية ، وكان لبادن باول في كل حفلة، وفي كل مسرحية ،ويروي الدكتور برون عنه، فيما بعد، الحادث التالي:

"تأخر احد ذووي الأدوار، في حفلة ،عن ميعاده، بحيث طال الانتظار، وضج الحاضرون، فالتفت إلى بـــادن بـــاول، وكان جالسا بالقرب مني، وقلت له : يجب أن تقوم بعمل ما نلهي به الناس ،بانتظار الغائب، ألا تستطيع أن تملأ الفراغ بشيء من عندك ترتجله ؟" وقفز بادن باول على الفور إلى المسرح، وابـــتدأ بسلسلة من ذكريات طريفة عن المدرسة سرد فيها، وقلد ،وسخر ،وهرج، فأثار عاصفة من الضحك لم تهدأ بعاصفة غيرها من الهتاف والتصفيق "

وكانت المدرسة أيضا مسرحا لنشاط من نوع أخر، يسترق الطلاب الخطى إليه استراقا، يقومون به الخفية، بعيدا عن أعين الرقباء

هي الغابة الكثيفة الفاتنة مسرح هذا النشاط الخفي، وقد امتدت رهيبة، غامضة، وراء باحات اللعب، إلى حيث يقع النظر، لقد كان لها على كل فتى مغرم بالطبيعة تأثيرها، وسرعان ما اكتشف بادن باول ســـحرها، وفتنتها ،وأسرارها، ومفاجأتها، وكانت الأصوات التي تنبعث منها في ليالي الشتاء العاصفة تملاء الأفاق، وتأخذ عليه السبل

لقد وجد بادن بول في هذه الغابة،التي جاورت المدرسة، ما حرك فيه كل ساكن، فبعث فيه الشواغر والخيال، وأثار فيه الرهبة والرغبة ودعاه إلى حب الحياة والكفاح في سبيلها

لقـــد وجـــد فيها أهم عناصر الكشفية، وهو يذكر ذلك في مقالة كتبها يوم احتفلت المدرسة بمرور خمسين سنة على خروجها من المدينة إلى الريف،قال:

"لكـــأني أحـــيا ذلك في الأمس القريب، وليس الخمسين سنة انقضت، فأراني في الغابة التي تمتد أمام شـــرترهوس الجديـــدة، أتعلم أن انصب الفخاخ للأرانب، وان اشوي غنيمتي على نار ضعيفة، وان اضرب بفأس الضربة المحكمة، وان اعبر فجوة من الأرض فوق جسر من شجرة مقطوعة، وان امشي بـــين الأدغال دون أن يرتفع لقدمي صوت، وان انس بالعصافير والحيوانات أتقرب إليها متوددا ولا اقتحمها اقتحام عدو مهاجم، وان أخفى أثار خطواتي، وان أتسلق شجرة، فأبقى بين أوراقها مخنوق الـــنفس، ســـاكن الحـــركة، إلى أن يمر تحتها من أقطاب المدرسة من يمر متناسيا أنهم قد يرفعون إلى الـــنظر،لابل أنهم قد يكونون على علم بوجودي على الشجرة، إنما يتغاضون، فيمرون مر الكرام، لا يـــرفعون إلى فـــوق من نظر، خوفا من أن تقع العين على العين.. ثم الطيور، والحشرات والدبابات، وكـــل ما هب ودب ،وقد كنت اكتشف مكامنها، وارصد حركاتها، وادرس طباعها، ذكريات تمر الآن أمـــام عـــيني، وكأنها من وقائع الأمس ، كم أحببت في حداثتي كرة القدم، والرياضة ،والجري ،والعدو لقد مضت كلها مع أوقاتها، و لم تترك بعدها في قلبي إلا ذكريات ، تمحوها الأيام ذكرى بعد ذكـــرى ،أما الغابة ،والساعات التي قضيتها فيها أتصيد،واكتشف وانظر ، وأتأمل ، واشعر، فإنها لا تزال حية في نفسي، فلقد علمتني أن اكتشف لذة الحياة ونعيمها "

وكانـــت العطلة المدرسية تتيح له الفرصة ليزاول نشاطا من نوع أخر، فكان يقضيها مع إخوته على المـــاء، في يخـــت لهم من صنع أيديهم، يتولى قيادته أكبرهم، وارتكنون، البالغ من العمر يومئذ ثلاث وعشرين عاما، وعندما استأجرت الأم منزلا للصيف على نهر الواي، قرر الإخوة أن يذهبوا إليه على ظهـــر يختهم، ف به نهر التاميز، ثم نهر السيفون ،وأخيرا نهر الوادي في رحلة طويلة ممتعة، حفت بها المصاعب من كل جانب

وراق الإخـــوة مثل هذه الرحلات، فقاموا بغيرها، على ظهر سفينة اكبر، وفي مجالات أوسع، فقطعوا بها شواطئ اسكوتلاندا،وإنكلترا ، حتى النرويج مقتحمين الأخطار والأهوال، وكم من ليلة أحيوها يصـــارعون الأمـــواج، ويعاركون العاصفة، وارتكتون على دفة القارب يديره بحزم ومهارة ، يصرخ بأوامره إلى كل الجهات، بصوت أقوى من الرعد، وأقوى من الريح

ولقد وصف بادن باول بعدئذ مغامرات حداثته بقوله:

" لـــئن كنت شغفا بخوض البحار، على ظهر اليخت، مع إخوتي، فاني لم أكن اقل شغفا بالسير على الأقـــدام، والضـــرب مشيا في البلاد الواسعة، طولا وعرضا، ولقد قمنا مرارا، أثناء العطلة الكبرى،

بـــالطواف في بـــلاد ألغال، واسكوتلاندا، والعصا بيدنا والكيس على ظهرنا، نقضي معظم الليالي في العـــراء، تحـــت القبة الزرقاء، وكنا نشتري من المزارع التي تقع على طريقنا ،ما نحتاج إليه من حليب وخـــبز وسمـــن و بيض و ولم يكن بألذ لدينا من التجول في الريف الجميل، نقطع السهول الخضراء والغابـــات الكثيفة، نتسلق الجبال، ونهبط الوديان، ونلتقي بأنواع من الطير والحيوان والنبات، فكان المخطـــط يقـــود أقدامـــنا في النهار، وكانت النجوم تنير سبلنا في الليل، وكنا نرسم صور القصور، والأديـــرة، والمعـــابد، وغيرهـــا مـــن المـــباني الأثـــرية التي كنا نمويها، مستفهمين من السكان عن أصـــلها،وتاريخها، وحكاياتها، وأساطيرها، وعندما يبلغ بنا المسير إلى أحدى المدن الكبرى، كنا نزور احـــد معامـــلها، لنرى كيف يتم العمل فيه، فنشاهد كيف يتحول الصوف نسيجا والشجر أوراقا، وكيف يستخرج الحديد من جلاميد الصخور، وكيف تنشأ البنايات وترتفع الصروح، وتدار الآلات، وتســـتخدم الكهـــرباء .. فنتعلم هكذا أشياء كثيرة نلم بها عن المهن والحرف بعض الإلمام، ونمارس بعضها ممارسة خبير قدير"

ولمـــا بلـــغ، في عـــام 1876 التاســـعة عشـــرة من عمره، وكان على وشك أن ينهي دروسه في شـــارترهوس، أخذت مشاكل المستقبل تقلق باله، لا يدري أي سبيل إليه يسلك، و لم يكن في عائلته من تقليد عريق يتمشى عليه، فلقد ضمت، على مدى الأجيال ،الفلاح، والتاجر، والمحامي، والحاكم، والمصرفي، والراعي، والضابط،والبحار..

واستشـــاره في غمرة حيرته، هذا وذاك من أصدقاء أبيه، ومن معلميه فاتت النصائح متضاربة لا تجمع على أمر

وطلـــب ،أثـــناء ذلك الانخراط في سلك الجيش وقدم الامتحانات المقررة ،وراح ينتظر وهو ضعيف الأمل بالنجاح

وإذا بـــه يقـــرأ ،ذات يوم في الجرائد، انه قد نجح نجاحا باهرا ،وانه ....في الخيالة،والرابع في المشاة، من سبعمائة طالب تقدموا بالامتحان

وفي الحـــادي عشر من ايلول من عام 1876 صدرت إليه الأوامر بالالتحاق ،برتبة ملازم أول،بفوج الخيالة الثالث عشر، المرابط يومئذ الهند

وفي الثلاثين منه كان فوق ظهر الباخرة " سيرابيس" يمخر عباب..جر إلى بومباي

الهند

كانت الهند المرحلة الأولى من حياة طويلة من الأسفار والرحلات وقد قطع بادن باول عهدا لامه بان يـــدون لها، في يوميات متتابعة ،كل ما يهمها معرفته من إحداث تطرأ عليه ومن حالات يتقلب فيها، في حياته الجديدة

وهذه إحدى رسائله الأولى لها يقول:

هاأنذا ابدأ بما وعدتك به من كتابة يومياتي، اعلق عليها بما يبهج النظر من رسوم وصور ،هل أفلحت ، وهـــل وجـــدت إلى مـــا ابغي من مسرتك السبيل والمنهج؟ أن ما كتبته إلى الآن يبدوا لي مقطعا ،مجموعـــة مـــن شتات، ناقصا، ومع ذلك فقد توفرت لي فيه لذة لم أكن لانتظرها، إذ شعرت بأنك حاضـــرة بجانبي في حوادث الأيام، تسانديني فيها، وتشاركيني في عيشها، وهذا ما يضاعف في عيني من قيمتها ، ولعلي من شأنها ،وأنها أيضا لفرصة للتحدث معك انتهزها ما استطعت واملأ بها فراغي في عمل مفيد ممتع "

وجـــاءت هـــذه الرسائل ، بما فيها من وصف وتصاوير نواة للكتب الذي أصدره فيما بعد بعنوان: ذكريات عن الهند"

عـــندما وصـــل بـــادن باول إلى الهند، لم تكن حالة الجندي فيها بالتي يحسد عليها، فلقد كان أكثر الأحـــيان يـــترك وشأنه، ليس من ينظم له أوقات فراغه، وليس من يسعى له بأسباب الترفيه النافع، والتسلية الرفيعة

وكان اللورد روبرتس، قائد الفرقة، أول من أعار هذه الناحية من حياة الجندي الاهتمام اللازم، فقام بالمســـاعي في سبيل ذلك، أشرك فيها بادن باول ،فكان أول اتصال بين رجلين سوف يرتبطان فيما بعد بصلات من الود المتبادل تعود على البلاد بأوفر الفوائد، وكان روبرتس لا يفتأ يقول: " الجندي رجل، له مثلنا عقله وقلبه، وليس آلة صماء لا تشعر ولا تعي"

واليك ما كتبه بادن باول عن أول التقاء له به:

"كنـــت يوما في حفلة راقصة، وذلك في أول عهدي بالجندية وبالهند، وبعد جولة من الرقص ذهبت إلى المقصف لأخذ بعض المرطبات، ولما كنت اجهل الهندية لم استطع أن اعبر للخادم عما أريد، وإذا بقـــائد شاب قصير القامة، يهب لمساعدتي، ثم ينتهي مع بقوله، عليك لكي تحول قامتك في الهند إلى متعة، أن تنكب على تعلم الهندية، في أسرع وقت، ولسوف تجد لذة لا تضاهيها لذة في التحدث مع الهنود بلغتهم" فشكرته وانصرفت وإذا به يرسل إلي في اليوم التالي احد الترجمة الهنود ،ليعلمني الهندية"

كـــان ما يتقاضاه الضابط البسيط من راتب في ذلك الوقت زهيدا، فلم ير بادن باول أن يلجأ إلى أمه أو إلى إخوته، يكون عالة عليهم، ولذلك عزم على بعض التقشف في عيشه، مكتفيا فيه براتبه الضئيل فكتب يقول:" لقد انصرفت عن التدخين، واقللت من شراء النافل الزائد من الطعام والشراب، فتوفر لدي بذلك من المال مبلغ اصرفه في وجه أفضل"

وانصـــرف إلى الكـــتابة في الصحف ليربح بقلمه ما يسد به بعض حاجاته، فكانت الأشغال هكذا تـــتراكم عليه، تحتكره أناء الليل وأطراف النهار، تملأ من يومه كل ساعات الخدمة الرسمية، وتملأ من يومـــه أيضـــا كـــل أوقات الفراغ، وكانت كثيرة، وكانت للجنود والضباط مضيعة للوقت، ومجلبة للضجر، ومبعثا لشتى الرذائل والعادات وبذلك تفشى الشرب، وتفشى القمار،وساهم بادن باول في التمثـــيل والغـــناء والموسيقى والتأليف والرسم واللعب، وكان له فيها جميعها مواهب وعطايا فريدة قدرهـــا له رفقـــاؤه قدرهـــا، وأفادوا منها، واستغلوها ما استطاعوا حتى قال احدهم عنه:" انه أثناء الوظـــيفة اشـــد ما يكون جدا وصرامة ،أما بعد ذلك فهو خليق بكل ضروب التلهي والعبث ،حتى الجنون"

كانـــت الأعـــوام الأولى مـــن الجندية شاقة صعبة على بادن باول وكان عليه أن يتمرس في مهنته، ويـــتدرب على أساليبها، ويطلع على أسرارها، لاسيما وقد فآته أن يبدأ بالمدرسة الحربية، وأنها لمهمة شـــاقة حقا، تتطلب منه صرف القوى الجسمية، وبذل الوقت والجهود حتى أصابه الإعياء فكتب في ذلك يقول:

" كنت في السنة الأولى أتخم بالأدوية المتنوعة، أداوي بها الكبد، والمعدة، والحميات، وكانت معالجتي لـــلحمى على الصورة الغربية التالية: كنت اقلل من الطعام، وأكثر من الشمبانبا واغطس مدة عشرين دقيقة في حوض من الماء الحار، بينما على راسي وابل من الماء البارد

ثم أجـــرع من زيت الخروع جرعة كبيرة، اذهب بعدها إلى النوم، وأنا مرتد الثياب الصوفية الكثيفة وفي الـــيوم التالي الزم فراشي ،وابتلع من أقراص ألكينا عددا ، فلا تلبث الحمى أن تزول، أما أمراض المعـــدة والكـــبد، فلم ينجع فيها الدواء، حتى ضعفت ، ووهنت قواي، وبت أخشى ما هو شر من ذلك"

وجاء أمر الطبيب بالاستراحة التامة، لمدة طويلة، فعاد إلى إنكلترا ،على ظهر الباخرة سيرابيس ،تلك التي أقلته، قبل سنتين ،في أول رحلة له عبر البحار، من إنكلترا إلى الهند

وفي إنكلـــترا اخذ ينتجع الصحة على طريقته، بمزاولة أعمال جديدة ، وهوايات جديدة وقديمة تنفحه القوة والعافية، دون أن تذهب بأيامه سدى

وانتهز فرصة وجوده في الوطن ليعيد اتصالاته بذويه، وبأصحابه، ومعارفه – وما أكثرهم – يعزز بينه وبيـــنهم الصـــلات،ويوطد الصداقات، ويشدد ما كان منها متراخيا، ويربط ما كان منها مقطوعا،

وهـــذا دأبه طوال حياته، فكان من الذين لا يقطعون بأحد صلة، مهما رق حبلها ،وكان يحرص كل الحرص على الوسائل التي كانت تنهال عليه من كل جانب فيجيب عليها كلها، يجد لها الفرص لينتهز حتى أصغرها، ليسطر لهذا كلمة ولذلك تحية، تذكي نار المودة، وتبعث الذكريات

و لم ينس مهنته وما إليها، فتعلم الرماية في إحدى مدارسها، بلغ فيها في أخر الدورة درجة ممتازة كما ومـــارس عـــلى الهامش فن التمثيل والأداء يحضر لأهم الممثلين ،ويزوق أرقى المسارح ، يستلهم من الأدوار، ومـــن الزينة، ومن الديكور، ومن المكياج ،يكتز منها ما يستطيع للأيام المقبلة في الهند وفي أفريقيا في الجيش وفي الكشفية

وقعـــت أثـــناء إقامته في إنكلترا حوادث هامة في أفغانستان، فلقد قتل الأفغانيون المقيم البريطاني في كـــابول مع كل أفراد بعثته، ونشبت على اثر ذلك ثورة انتهت،بعد مناوشات هنا وهناك، بانكسار الإنكلـــيز في موقعة "مايوند" وبعقد معاهدة للصلح ،تعهد بموجبها الإنكليز بالجلاء على مراحل عن كل البلاد الأفغانية

ولمـــا عاد بادن باول بعد حقبة من الاستراحة، إلى الهند، كان فوجه قد أرسل إلى أفغانستان، فاضطر إلى الالتحاق به على جناح السرعة وقد كتب لامه كلمة عاجلة عن بلاد الأفغان وسكانها قال:

" بلاد قاحلة جرداء، كأنها الصحراء الكبرى، مع مزارع ضئيلة تمتد على شوطئ الأنهار النادرة، لكن المـــناخ صـــالح ،والرجال أشداء، وهم طويلو القامة، طويلو الشعور، معكوفو الأنف، يرتدون ثيابا فضفاضـــة بيضـــاء، وهـــم إلى سفك الدماء سريعون، ولقد فقدنا بعض خدامنا من الآهلين الموالين، أرسلناهم في مهمة إلى القرى فلم يرجعوا، وذهبت بحاثنا عنهم أدراج الرياح، وأكثر الظن أن سكان القرية المجاورة قد فتكوابهم"

ولـــنا في هذا الحقل حوادث كثيرة طريفة، وهناك ما كتبه عن احدها: " في ليلة عاصفة أبرقت فيها السـماء وأرعدت، أفلتت جياد المعسكر من مرابطها، وراحت تضرب في الجبال مروعة، شاردة ، لا تلـــوي، وقد استطاع الجنود إدراكها والعودة بها، إلا واحدا منها، فلم يقع له احد على اثر ولما كنت شـــغيفا بعلم الفراسة ،أتمرس في اقتفاء الأثر، وتتبع الخطى، واكتشاف الأقدام، رأيت الفرصة سانحة لاختـــبار معـــارفي في هذا العلم لأرى مبلغ ما بلغت منه، فركبت جوادي" ديك" ورحت ابحث عن ضالتي، حتى وجدت أثار حوافر جواد ذهب ينهب الأرض نهبا، فتعقبتها، إلى أن بلغت بي إلى مرتقى جـــبل كثير الصخور، وعر المسالك لا سبيل إلى اقتحامه على ظهر الجواد، فترجلت ،وتركت"ديك" وقـــد كنت دربته على مثل هذه المواقف فهو يظل في مكانه لا يتحرك منه قيد خطوة، إلى أن أعود إلـــيه، ثم أخـــذت أتســـلق الصخور، و لم البث أن رأيت الجواد الشارد ترتسم صورته على صفحة الســـماء، في ذروة الجبل،وبعد جهود شاقة وصلت إليه ، فرأيته واقفا كالمبهور المرتاع، شارد النظر، يـــرتعش خوفـــا، وبردا، والدم يسيل من احد قوائمه، فلم أزل به تمسيدا وملاطفة حتى هدأ روعه،

واطمـــأن فاخذ ينحدر معي الجبل في حيطة وحذر، إلى أن بلغت به المكان الذي وقف " ديك" فيه ينتظرني، فركبته وعدت بالاثنين إلى المعسكر، فرحا بنجاح المحاولة ،وبلوغ الهدف"

بـــدأت أعمال الانسحاب والجلاء، كما نصت المعاهدة، وكان على فرقة الخيالة الثالثة عشرة، فرقة بـــادن بـــاول، أن تحمـــي الأعقاب، فتنسحب بعد المشاة مباشرة، وكان المشهد، في تواجه الأضداد وتـــنافرها، لا يخلو من طرفة فكان الخفراء يتبادلون المواقف فما أن ينسحب الخفير من الإنكليز وقد ارتـــدى لذلـــك اليوم بزيه الرسمية، واعتلى صهوة جواده كأنه في عرض، حتى يقوم مقامه الخفير من الافغانين على فرص أصيل وقد ارتدى ألبسته البدائية المعتادة كأنه في موكب من الغزاة الاقدمين"

ولنـــترك الجيش ينسحب حسب الخطط المرسومة، ولنتكلم قليلا عن روسل قائد الفوج الثالث عشر للخـــيالة، وقد كان بادن باول يعترف له بالجميل، ويذكر دائما من له عليه من الأيادي البيضاء وقد وصفه في إحدى رسائله قائلا:

" لم يكـــن روســـل بالرئيس الذي يتقيد بالقوانين والأنظمة المكتوبة تقيدا أعمى، سائرا عليها بحرفها وحذافيرها كغيره، ولم يكن ليهتم بالألفاظ والتعابير التي يصيغ فيها أوامره،ولكنه كان يرسل ،وهو في المـــيدان، النظرة السديدة الصائبة، يضع بها رجاله كلا في موقفة ومكانه ، كما تقتضي الحالة، وليس كمـــا ينص الكتاب، وكان يترك لضباطه المجال ليتحملوا مسؤولية أعمالهم، يظهر لهم بذلك من الثقة ما يثير فيهم الحمية ويلهب الهمم، وكان صادق الحدس سريع الخاطر، حاضر القرار، لا يترك الفرصة تفوته، ولا يتباطأ في تنفيذ أمر قد عزم عليه

ويجـــدر بالذكـــر أن روسل هذا كان يسير على غرار براون، رئيس مدرسة شارترهوس، في اعتبار الأنظمـــة ،وتفهم القوانين، فهي في نظره إنما جعلت لترشد وتلهم أكثر مما جعلت لتقيد وتكبل، وهو يدعـــو مرؤوسيه إلى تفهم أغراضها واعمل الفكرة والراوية فيها، وان استهدفوا أحيانا للخطأ ، وقد وجد في بادن باول التلميذ الأمثل، فلم يترك فرصة إلا وانتهزها لتقليده المسؤوليات وإرساله في المهام الدقـــيقة ، تاركـــا له وضع الخطط الملائمة لها، مفسحا له المجال ليبدي فيها ذكاءه وحيلته وكانت جـــولات الاستكشـــاف والاستطلاع، بما يكثر فيها من مباغثات ومفاجآت، وبما تستلزم من ذكاء وحيلة، خير ميدان لمثل هذا النشاط ،

وقـــد يكـــون روسل هذا أول من لفت أنظار ولسلي القائد العام إلى بادن باول فاتحا له بذلك باب التقدم على مصراعيه

ومن طرف ما جاء في رسائل بادن باول عن جولات الاستكشاف هذه التي كان يضطلع بها، الأسطر التالية:

"كـــان ذلك في مدينة كيتا، حيث جرت مناورات ليلية، عهد فيها إلى بعضنا بان يقوموا بدور العدو في تطويـــق المنطقة والتمركز حولها، ومهاجمتها بينما عهد إلى بعضنا الأخر وأنا منهم بان يستكشفوا

مواقــع العدو، واستحكاماته، ويستطلعوا على خططه ومقاصده، ويعودو عنه با الأخبار الوافية التي تمكن الحامية من الدفاع عن المنطقة ومن شن هجوم معاكس تدحر به العدو وتجليه عن مواقفه

كــان حــرس العــدو، في أول الأمــر على أتم اليقظة والاستعداد، فكشفوا أمر بعض الطلائع منا، وأســروهم، وردوا ســائرهم عــلى الأعقاب فاشلين، ثم توصل مع ذلك بعضنا على ما أردوا من الإطــلاع على مراكز العدو وتحصيناته، وجمعوا عنه معلومات وافرة، ثم نسامر على كومة من التبن مســتريحين، وبعــد ساعات قليلة قرسهم البرد فأفاقوا ، وأردت أن أتي بحركة تدفئني ولما كنت قد عرفــت بمواقــع حرس العدو، استطعت أن أتسلل إلى صفوفهم وأتغلغل داخل منطقتهم، فابلغ احد الحصون، ثم تتبعت بعض دورياهم، فوقفت على أماكن التحشدات ومواطن القوى و لم أر خفراءهم عــلى ما بدأ به من التيقظ والحذر، فلقد أغراهم سكوننا، فظنونا، بعد فشلنا الأول قد ولينا الأدبار، وقــبل أن أعود بهذا الحصاد من المعلومات تركت منديلي في دغلة هناك، ثم تسللت راجعا إلى موقعنا وقد اخذ الأفق يبيض بنور الشفق

ولمــا اجتمعنا كلنا، في النهار لندرس الحوادث ونقدها، بحضور القائد خالج بعضهم الشك من إننا قد وصــلنا إلى ما أدركنا من معلومات، عن طريق الاستكشاف الشخصي، وادعى العدو إننا لأعجز من أن نطــأ بأقدامــنا الأماكن التي ذكرنا، وقد بلغوا بها من التحصين ما بلغوا لكن لما أرسلتهم بطلب المنديل الذي تركته في الدغلة، سكت كل مقاوم ومعاند

غــادر فوجه الهند، عام 1884 إلى إنكلترا بعد عشر سنوات من الخدمة فيها، إلا انه توقف وهو في طريقه إلى إنكلترا في أفريقيا الجنوبية التي كانت يومئذ في حالة من الغليان قد تنشأ عنها الحرب، وأراد روســل أن يســتدرك الأمور، لاسيما وقد صدرت له الأوامر بان يكون على قدم الاستعداد، فبعث ببادن باول في مهمة استطلاع دقيقة ، كتم سرها حتى عن أعوانه

وقــام بادن باول بهذا المهمة أحسن قيام، شانه في كل مهمة استطلاع يرسل بها، فتنكر بهيئة مراسل جــريدة جاء ليجمع لجريدته عن أحوال البلاد كل ما يستهوي السياح، فارجى لحيته، وارتدى من الألبســة مالا يلفت الأنظار، وراح يتجول هنا وهناك يتوقف في مزارع البوير ، يستكشف أحوالهم، ويجمــع مــن المعلومات عنهم وعن مسالك البلاد وممراتها الجبلية ، ما لا غنى عن معرفته في حالات الطوارئ

وجــره أيضا حب الإطلاع الذي نشأ عليه، إلى مالا شأن له بالحرب، وبالمهمة التي أرسل بها، فوقف عــلى حــياة الــبوير وطرق عيشهم، وعاداتهم وأخلاقهم، حتى كسب ودهم بما اظهر لهم من ميل وانعطاف ،كما انه صار يكن لهم كل تقدير واحترام

أن ما جمعه هكذا من معلومات لم يجد يومئذ من نفع، لان الحرب يومئذ لم تقع، وتابع الفوج طريقه إلى إنكلترا، بينما كان بادن باول، وقد منح إجازة ستة اشهر ويقضي أياما كما يحلم، مع بعض ضباط فوجه في جولة صيد وقنص في غابات أفريقيا البرتغالية الشرقية

أفريقيا

قضى بادن باول ، بعد عودته من الهند، سنتين متتابعتين في إنكلترا يعيش عيشة الثكنات والمعسكرات، لا شائق ولا جديد، في تمرينات وتدريبات ومناورات ورسميات ما كانت لتروق رجلا مثله تواقا إلى المجالات الرحبة، والأفاق الفسيحة، والاستكشافات البعيدة ،في الغابات والجبال

ما كانت حياة النظام والقانون، في شدتها الحرفية، وقيودها الصلبة وفي حدودها من المكان والأشخاص، لتروق رجل المغامرات والمسؤوليات رجل الأخطار والأهوال، رجل الاستكشاف الجرئ والحيلة المبتكرة

وانتهز مع ذلك تلك الأيام الرتيبة الهادئة ليؤلف كتابه" مغامرات جاسوس" ولقد اختار له هذا العنوان ،على ما يثيره اليوم في الأذهان من نفور وكراهية ،ليدلل على مالا عمال الاستكشاف والاستطلاع من أهمية، وأنها لمهمة جديرة بكل جندي ،لما تتطلب من شجاعة، وتستلزم من قوى ،وتوفر من فوائد ، والجندي إذ يقتحم في سبيلها الصعاب ويضطلع بالمسؤوليات الخطيرة ،يستكشف ،ويستطلع ، ويفاجئ فيحبط خطط العدو، ويكشف عما يحيك من خدع وعما يبيت من مقاصد ،فانه ليخدم بذلك جيشه ووطنه أحسن خدمة، أما وان الحرب خدعة فان هذه لمن أفضل ما في الحرب من خداع

في مثل هذه المهام ذهب بادن باول أثناء ذلك إلى روسيا ليطلع على طريقة جديدة للاستكشاف من الجو بواسطة البالونات، فاستطاع أن يدخل مع أخيه ، وهما متنكران، القلعة التي تجري فيها التجارب ، ساعده على ذلك ما كان يسود البلاد يومئذ من جو للجاسوسية رهيب، لا يعرف المرء فيه من المتجسس ومن المتجسس عليه وقد يكون الرجل كليهما في أن واحد

وفي مثل هذه المهام أيضا ذهب إلى ألمانيا والى النمسا وزار ميادين حرب السبعين، التي دارت بين ألمانيا وفرنسا، يتفقد أماكن القتال، ويدرس خطط المعارك التي جرت فيها، باحثا عن أسباب فوز الألمان واندحار الفرنسيين

وفي عودته من مهام الاستطلاع هذه عرض عليه الجنرال هنري سميث خاله، أن ينضم إلى أركان حربه في بعثة إلى أفريقيا الجنوبية فقبل وساهم هكذا في الحملة على قبائل الزولو الثائرة وقد استهدف فيها إلى أخطار كادت يوما أن تودي بحياته

ولما عين سميث حاكما عاما على جزيرة مالطا، إستصحب معه إليها بادن باول أمينا للشؤون العسكرية، فبذل جهده في رفع مستوى الحامية ،ونشأ ناديا للجنود والبحارة ،يوفر لهم فيه أسباب التسلية والتثقيف وفي هذه الفترة من الزمن ظهر له كتاب " صيد الخنزير البري" الذي لم يلبث أن أصبح الرفيق والمرجع لهواة الصيد والقنص

واخذ يسأم حياة الثكنات ،وقد ثقلت وطأتها عليه، فطلب أن يعهد إليه ببعض المهام الخارجية، فعين ضابط في دائرة الاستعلامات للبحر الأبيض المتوسط، وزار بهذه الصفة شواطئ دلماسيا، ساعيا لاكتشاف مواقع جديدة للمدفعية أقيمت حديثا في الجبال وزار مضايق الدردنيل على ظهر مركب تجاري ، يستكشف التحصينات الجديدة إلى تقام على ضفتيه ، وزار الألب النمساوي ليطلع على أساليب الحرب الجبلية

والتقت به يوما في الألب النمساوي فريزة من الضباط في إحدى ميادين المناورات الحربية، وما كان ليفلت من أيديهم لو لم يعمد إلى حيلة طريفة: فما أن رآهم مقبلين نحوه، ولا سبيل إلى الهرب منهم، حتى اخذ يرسم فلما اقبلوا عليه رأوه منكبا على الرسم يصرف فيه كل انتباهه، لا يلوي على شيء، وادعى انه فنان يجمع بعض التفاصيل والدقائق للوحة يرسمها بعنوان: بزوغ الشمس في الجبال، ولقد رأوا له من المقدرة والإجادة ما كسب به على الفور ثقتهم، فدعوه إلى تناول العشاء معهم، والى مشاهدة طرفا من المناورات الجبلية، التي كانوا يقومون بها، يتتبع معهم تطوراتها على المخطط الذي فتحوه بين أيديهم، وما أن انتهي النهار حتى كان قد وصل إلى كل ما يبتغيه من معلومات

لم تكن هذه المهمة العابرة ،على خطورتها، لتلهيه عن مستقبله، فرأى أن يستقيل من منصب أمين الشؤون العسكرية في مالطا ،ليلتحق بفوجه الثالث عشر للخيالة ، يشترك معه في نشاطه، لاسيما في المناورات الواسعة التطابق التي تجريها الآن في ايرلندا، إذ ليس مثلها ما يحفظ للجندي روح الشجاعة والإقدام، ويكسبه القوة والمراس، وليس مثلها ما يبرز للعيان ما ينطوي عليه الضابط من صفات شخصية تميزه عن أقرانه

وهذا ما حدث لبادن باول في تلك المناورات، فلفت إليه أنظار ولسلي القائد العام، وقد وجده على ما يرغب ويتمنى من الصيفات، وصار منذ ذاك رجله، يعهد إليه بالمهمات الدقيقة، يترك له فيها المجال لذكائه وحيلته

واتته أول هذه المهام في أفريقيا، حيث كانت قبائل الاشانتي – التي تضمها اليوم دولة غانا – في ثورة لاهبة يقودها الملك برمبا، ولم تكن هذه بالثورة الأولى،فلقد اضطرت إنكلترا أن تسوق على الاشانتي طوال القرن التاسع عشر تسع حملات عسكرية، لكسر شوكتها وإخضاعها، ولم يتم لها ذلك إلا في عام 1901

وكـــان على بادن باول أن ينظم جيشا من القبائل الموالية يقودها في الطليعة، في عمليات استكشاف يشق بها الطريق، ويمهد السبيل، لتقدم الجيش النظامي وقد اختار لجيشه الطربوش الأحمر لباسا، كما اخـــتار لنفسه القبعة العريضة الجوانب، التي عرف الكشاف بها فيما بعد في العالم كله، لم يكن ذلك مـــنه للأغـــراب، بـــل للمنفعة ،فقد كانت خير ما يحمي به الضارب في الغابات والسهول رأسه من الأغصان الواطئة، ومن الشمس والمطر ..

وجاء تنظيمه للجيش على الصورة التالية، وقد قامت فيما بعد أساسا لفرق الكشافة: قسم الجنود إلى فصائل من عشرين، وضع على كل منها رئيسا جعله المسؤول عن المعدات والرجال وفكرة المسؤولية هـــذه لم تشـــق إلى العقول طريقها إلا بعد جهد جهيد، إلا أنها رسخت أخيرا في الأذهان، وقبل بها الجميع، فاتت العمليات معها على ما يجب من الدقة والوعي

والقـــوى الاستكشـــاف هـــذه الفضـــل في نجاح الحملة ،فقد استطاعت أن تبلغ العاصمة كوماسي فندخلها، دون أن يستطيع الملك منها مهربا، وانتهى الأمر بخضوع الملك، وإخماد الثورة، فعاد الأمن إلى البلاد، ولو إلى زمن

واتت بادن باول الترقيات، فأصبح برتبة عقيد وهو لا يزال في التاسعة والثلاثين من عمره

لم تمـــض أســـابيع معدودات حتى استدعي إلى خدمة جديدة وصفها بعدئذ بقوله:" أنها كانت أجمل مغامرة قام بها في حياته "

كانـــت بـــلاد المـــتابلة تتخـــبط هي أيضا في ثورات لا تنتهي ،وهذه حملة القمع تبحر إليها بقيادة كرنكتون، يتبعها بادن باول رئيسا للأركان، مع فوج من المشاة يبلغ الخمسائة رجل

ونزلت الحملة في الكاب، ومنها توجهت بالقطار إلى مافكنج، ثم إلى بولوليو عاصمة المتابلة

وبـــدأ عمـــل بـــادن باول كرئيس للأركان شاقا مضنيا، فلقد كان يقضي الساعات في مكتبه يملي القـــرارات، ويصدر الأوامر ،ويسهر على الكبيرة والصغيرة لتنفيذ الخطط العامة، ولم يكن بأدق من البلاغات التي كان يذيعها على أعوانه،ولقد اخبر احدهم أن بادن باول أرسل له يوما بلاغا لا يتعدى الأسطر السبعة إيجازا، إلا انه كان يتضمن كل ما يقتضي تاركا له حرية التصرف في ما سواء

لم يكـــن بـــادن باول رجل غرفة ومكتب فحسب، انه كان بنوع خاص رجل الأفاق والأبعاد، وان لرجلـــيه وناظـــريه مـــن جولات في رحاب الأرض وشعابها بمقدار ما لديه من جولات بالقلم على القـــرطاس وأنها في كلتا الحالتين ،لجولات خصبة موفقة سارت له فيها شهرة واسعة، انه رجل فكر وعمل معا، رجل سيف وقلم، رجل تصميم وتحقيق، وكل عمل يبدأه في الغرفة بين الكتب والأوراق ،لابـــد أن ينـــتهي به في الخارج، ينفذه حركة ونشاط في المجالات الواسعة، سواء أكان دورة بحث وتفتيش أو جولة كروفر أو رحلة استطلاع واستكشاف أو نزهة صيد وقنص

ولم تتطلب مهمة منه يوما مثل ما تطلبت مهمته هنا، في بلاد المتابلة من أعمال الاستطلاع والاستكشاف ،مما قاده إلى أساليب جديدة وطرق مبتكرة واختبارات ثمينة ،قطفها الكشاف فيما بعد ثمارا يانعة كانت خير وسيلة له إلى الاكتشاف إلى اكتشاف نفسه واكتشاف ما حوله من طبيعة وإنسان

وكم من ليلة قضاها بين تلال المتابو يستطلع يستصحب معه يوما هذا ويوما ذاك من رجاله، حتى اسماه القوم هناك بالذئب الذي لا ينام ، وقد وصف احد مراسلي الصحف جولة من تلك الجولات الليلية كان له فيها دوره ..فقال:

" سالت يوما بادن باول أن يأخذني معه فغادرنا المعسكر حوالي الساعة التاسعة، وسرنا بأقدام خفيفة نقتحم ظلمة الليل إلى التلال التي في منتهى الأفق إلى أن وصلناها ، وأخذنا نسلك مسالكها ، كمن له بها معرفة قديمة، لا يخفى عليه منها خافية ،من طرق ومن مكامن ومن فجوج ومن ثغور وقادني بادن باول في طريق وعرة إلى تل أشرفنا منه على نيران احد معسكرات العدو، فأشار بالسكوت، ولبثنا ننظر إليها صامتين، ثم قفلنا راجعين اخذين طريقا أخرى جريا على عادة له من الذهاب في طريق بالعودة من أخرى وان مبدأ هذا الذي استوحاه من الفطنة والخبرة ،ليصبح الآن ، ونحن في بلاد المنابلة ، بين أقوام مخيفين، من ادعى دواعي الحذر والحكمة، وما بلغت المعسكر حتى تنفست الصعداء فلقد كفاني ما شاهدت وما خبرت واني لأحمد الله على سلامة العودة ولم اعد قط بعدها إلى مثلها "

والى شهادة المراسل هذه نضيف شهادة القائد قال بلومر:

"أن يد بادن باول في نجاح الحملة العظيمة، واني لمدين له فيها بالكثير فلولا ما قام به من استطلاعات واستكشافات،لقاسينا الأهوال في بلاد من التلال ولآكام لا دليل لنا فيها ولا رائد فلقد كان يعرف طرق البلاد ومسالكها معرفة درس ومعرفة خبرة اتاحت له أن يضع المخططات الوافية الجامعة ، التي قامت عليها العمليات كلها

وقد كلفته القيادة ،في تلك الحرب ببعض الحملات المحلية فقام بمسؤولياتها بما عرف به من همة ونشاط، وكان بعضها شاقا ، يسير فيه على الأقدام مسافات طويلة، تحت الشمس المحرقة، في طريق وعرة لا ماء فيها ولا ظل وفي ذات يوم بينما كانت فر..يزته تسير هكذا في الصحراء قاحلة ، وقد أنهك التعب والعطش رجالها، أذابه يقع على أثار إوزة تبشت بأظلافها الأرض طلبا للماء وصدق حدسه فانه ما كاد يحفر قليلا حيث نبشت الإوزة حتى انبجس خيط من الماء كان اثمن ما يحلمون به في تلك الساعة، ورأى، في يوم أخر، حمامتين تطيران من صخرة فدنا من الصخرة فإذا بينبوع تتدفق مياهه من أسفله

وانتهـــت الحرب بخضوع القبائل واستسلام الرؤساء وعاد بادن باول منها بغنيمة سيكون لها شأنها في المستقبل ،فلقد وقع يوما على قرن كانت القبائل تستخدمه للتنادي فراقه وأخذه وبه بعد اثنتي عشرة سنة أرسل صرخة الكشاف الكبرى ، لم حوله بها شبيبة العالم كله

وعـــاد أيضا من هذه الحرب بغنيمة أخرى، فلقد كانت له مدرسة ،وأي مدرسة وسع فيها معارفه في عملـــيات الاستكشـــاف وبرع في أساليبه ووجد فيه الكثير من الجديد، وان كتابة الحملة على بلاد المـــتابلة" ليطلعـــنا عـــلى الوافر منها وقد يكون الكتاب من هذه الوجهة أحسن ما كتب وجعله من الرسائل التي كتبها لامه، ملاها رسوما وتصاوير وحكايات وحوادث وقعت له دونها لساعتها، يوما بعد يوم تاريخا صادقا لهذه الفترة من حياته

ولا بـــأس من اقتطاع الأسطر التالية، والكتاب يعج بأمثالها،قال:" رب علامة حقيرة تكشف لنا عن أمور خطيرة ما المثل على ذلك: فأسوقه مما حدث لي يوما، وأنا في جولة استطلاع مع احد أعواني عثرنا، فوق الأرض الرملية، على أثار خطوات هي دون شك لصغر الأقدام ونعومتها، خطوات نساء وأطفـــال، ولقـــد كان القوم أتين من بعيد، يدل على ذلك إنهم كانوا يحتذون النعال، مما لم يكونوا لـــيفعلوه، لـــو لم يكونـــوا في سفر، وكانت وجهة السير جبال المتابو،وفجأة صرخ رفيقي، صرخة الدهشة، إذ نظر على بضعة أمتار منا، ورقة خضراء ندية من ورق الأشجار التي تنبت على بعد خمسة عشـــر كيلومتر من هنا فعلمت من كل هذه الأدلة ،أن قافلة صغيرة من النساء حملت إلى المتابوزقاق مـــن الـــبيرا المحلية الجديدة، سدت أفواهها، كما هي العادة، بأوراق الخضراء من تلك الأشجار وقد مـــرت القافلـــة في الصباح الباكر إذ كان الهواء يهب شديدا ، يتطاير بالأوراق إلى هنا وهناك، وقد ذهب بالورقة إلى حيث وجدناها ولابد أن تكون القافلة قد بلغت في الساعات الأولى من الصباح إلى حيـــث قصدت كما ولابد أن يلتف القوم هناك حول القافلة القادمة وحول زقاق البيرا الجديدة ،إذ يعقدون كعادتهم، حلقات الشرب، يحتسونها حتى يثملوا فتخف الحراسة ويضعف لحذر إذ يكونون، بمـــا هم فيه من شرب ولهو، في غفلة عما يجري حولهم أنها فرصة قد سنحت إذا لبث العيون وإرسال دوريات الاستطلاع، على وسع مدى "

انتهـــت بالصلح مهمة بادن باول فعاد إلى الكاب ومن الكاب أبحر إلى إنكلترا وكان معه في الباخرة احـــد مرسلي الصحف فوصف لنا في صحيفته ناحية جديدة لشخصية بادن باول حان لنا أن نذكر عنها شيئا قال:

كلفت بتنظيم حفلة لركاب الباخرة فكان بادن باول أول من قصدت للمساهمة في الحفلة ،واني لأراه الآن جالسا أمام طاولة صغيرة وحوله المخططات والرسوم والأوراق انه اخذ بتأليف كتاب " الحملة على بلاد المتابلة" فما أن دري بمقصدي حتى أجاب دون تردد قائلا:

ضع اسمي في سكتش موسيقي

تحت أي عنوان ؟

لا ادري بعد، اترك ذلك لساعته

وذهبت إلى غيره، وأنا فرح ، وحسب اسم بادن باول عنوانا يستثير الحماسة، وفي اليوم التالي كانت صـــالة الباخرة الكبرى تغص بالناس وأكثرهم من عليه القوم ومشاهير الساعة: ودخل بادن باول بعد القسم الأول من البرنامج ،وجلس بجانبي فسألته:

والعنوان؟ هل وجدته؟

فأجاب ضاحكا:

لم أجــده بعد، والحقيقة أني لا اعرف بعد ما سأقوم به من دور ولكن هون عليك فلسوف تسعفني القريحة، ولن يخونني الحظ

وكـــنا ســـاعتئذ نستمع إلى أغنية هزلية لأحدهم بعنوان:" أني عصبي المزاج" لكن الرجل اخفق في ما أراد مـــن بعث الضحك وستثارة المرح، فظل الجمهور باردا لا يستجيب لنكته، ولا يحرك لها ساكنا، لا إنني عندما انتهى من إنشاده ألهبت يدى تصفيقا، على القوم يطلبون منه إعادة القطعة، فيجد بادن بـــاول أثناء ذلك عنوانه وموضوعه ولكن عبثا، فلم يجاري احد من الناس بمثل تصفيقي، ونزل الرجل وقام بادن باول إلى البيانو، في عاصفة من التصفيق والتهليل ومهد لدوره بالكلمة التالية:

سيداتي ، سادتي

اقرأ على البرنامج الذي بين يدي :" الكولونل بادن باول سكتش موسيقي" لكنني لا أقرا لهذه الدور مـــن عـــنوان وبالحقيقة أني لم أجده، أن بالا حرى لم أفكر به إلا في هذه اللحظة وفي استأذن الفنان الذي سبقني لكي انتحل عنوان ذاته، فيصبح عنوان دوري الآي:" إني عصبي المزاج"

وظـــل بـــادن باول ساعة ينتقل من أنشودة إلى أنشودة، ومن مسرحية إلى مسرحية، ومن حكاية إلى حكاية، حتى ضجت الصالة ضحكا وتصفيقا في عاصفة اجتاحتها من أقصاها إلى أقصاها"

أنها عطية من عطايا لروح، شهدنا هنا، على ظهر الباخرة بوادرها، سوف تشيع فيما بعد في سهرات نار المخيم المرح والسرور بين الألوف من الطلائع

وقضـــى بـــادن باول في إنكلترا عطلته ، أياما هادئة خصبة، أمضى بعضها في الاستراحة و في زيارة إخوتـــه وأصـــدقائه، وقد انتشروا في كل أطراف البلاد، وبعضها الأخر في إعداد كتابه "الحملة على بـــلاد المـــتابلة" وفي كتابة الرسائل إلى من ترك هنا وهناك في أسفاره من أصحاب ومعارف بانتظار مهمة جديدة ، ورحلة جديدة

و لم تلبـــث المهمـــة الجديدة أن أتت قائدا للفرقة الخامسة من الخيالة برتبة كولونيل جنرال، و لم تلبث الـــرحلة الجديدة أن أتت، هي أيضا، إلى الهند، حيث كانت الفرقة الخامسة في خدمة ولقد شق عليه كـــثيرا أن يغادر الفرقة الثالثة عشرة التي قضى فيها أكثر من عشرين سنة، إلى فرقة جديدة لا يعرف

مـــن ضباطها أحدا، والإطلاع له من تقاليدها على شيء وكان يخشى أكثر ما يخشى في أول التقاء له بها ، وقد كتب احد ضباط الفرقة يصف تأثيراته قائلا:

لم نلبــث أن شــعرنا بيد القائد الجديد، وانه القائد وأي قائد ولقد اخبرني فيما بعد انه كان يحسب للملــتقى الأول حسابه إذ لم يكن يومئذ من السهل الانتقال من فرقة إلى فرقة إلا انه سرعان ما تملك زمامنا واخذ بمجامع قلوبنا "

وقد رافقه احد الضباط ،وهو في طريقه إلى الهند، فكتب قائلا:

"لـــن أنسى ما أحاطني به بادن باول طوال السفر من عطف وعناية وقد أراني مجموعته من الرسوم، وفـــيها ما وقع عليه في سفاره،لاسيما في حملته المنابلة الأخيرة من طرائف جميل شارحا لي إياها رسما رسما ساردا لي عنها من القصص والنوادر مالا يوصف

وكانـــت له معـــي أحاديـــث لذيـــذة طويلة عن دوريات الليل في الحرب، وهي فرق الاستطلاع والاستكشاف ، وعن الملاحظة والتدقيق، أنها خبرته الشخصية يفيض بها إلي في هذه الأحاديث أفدت منها كل الإفادة لاسيما عندما عهدت إلي فرقتي مهمة الطلائع

وتطور بنا الحديث مرارا إلى شؤون أفريقيا والى حرب البوير وكانت شرارتها تنذر بالاندلاع بين ليلة وضحاها واذكر لي أن الحكومة ترى أن عشرة ألاف من الجنود تكفي لمجابهة الحالة ، بينما يرى هو أنهـــا تحتاج إلى خمسين ألف، وقد سخروا به يومئذ وأنني لم أر قط رجلا وادع النفس مثله، لا يزاحم احد على فكرة، ولا يفرض رأيه على احد فرضا"

ومـــا كـــاد يقوم على راس فرقته، حتى اخذ يسعى كعادته إلى رفع مستوى الجندي ففتح له مطعما خاصا يصرفه به عن مطاعم المدينة ووفر له أسباب التسلية، دعاه إليها داخل أسوار المعسكرات، بينما دعـــا زوجته للقيام بأشغال نافعة من الوشي والتطريز وقد ذكر عنه احد ضابطه ما يلي:" " كنا ،أنا وبـــادن باول نستقل القطار إلى دلهي، وكان الحر شديدا، والجو خانقا، وأكثر المسافرين معنا نياما، وكنـــت أتلهى بكتاب سهل المطالعة أزجي به الوقت ، بينما كان بادن باول منكبا على أوراق أمامه يرسم ماذا يرسم يا ترى؟ ونظرت، فإذا بها زخارف لأشغال الإبرة يعدها لزوجات الجنود"

إلا أن جل اهتمامه قد صرفه في السهر على صحة الجنود، وتعزيز أسبابها، لاسيما وان الأوبئة كانت متفشـــية في الهند تفشيا مريعا، يتعرض لها الجنود البريطانيون أكثر من غيرهم، وكانت مرض الزحار مـــن أبعدهـــا انتشارا واشد فتكا ولم يكن بادن باول ليرضى بان يعالجها ، دون أن ينقصى أسبابها ليستأصلها ،هذه طريقته في كل ما يعمل انه يذهب إلى حيث يكمن جرثومة ، فيعالج من الداء أصله ، واليك ما كتبه عن ذلك:

" .. ينتشر في الهند مرض مثل مرض الزحار ،ولا يذهب المرض من الضحايا مثل ما يذهب له ، ولم يكن الجنود البريطانيون في منعة منه ،لا بل كانوا أكثر الناس له تعرضا، لما نشأوا عليه في إنكلترا من نشأة لا تعدهم لمثل هذه الأحوال

وقد اتخذنا للأمر، في فرقتنا، ما يقتضي من التدابير فكنت أدون يوما بعد يوم، وأسبوعا بعد أسبوع، وشهرا بعد شهر، طوال السنتين اللتين قضيتهما في تلك الناحية ،كل حادث يقع ،وأدون معه أيضا ما أستطيع من المعلومات والظروف، من اتجاه الهواء ، وتقلبات الجو وحالة الثكنة، وعلو السقف، ونوع الاسـطحة، ودرجة الرطوبة فخرجنا من كل ذلك بفوائد وافرة ، وبنيجة عملية: فلقد كان الجنود لا يهـتمون عندما يختلفون إلى مطاعم المدينة، لما يأكلون ويشربون، فيعودون إلى الثكنة بجراثيم المرض، تسـري عـدواه منهم إلى غيرهم، ولذا فقد أنشأت لهم فرنا يجدون فيه كل ما يطلبون من الحلوى والمعجونـا ومعملا لشتى المشروبات غير الكحولية من كازوز وعصير ثمار وغيره وإدارة لمحبب تعقمه مـع مستحضـراته من الزبدة والسمن وتحفظه في أوان نظيفة، كما وأوعزت إلى الجنود بالإقلال ما سـتطاعوا مـن الذهـاب إلى المدينة، والجلوس على موائد مطاعمها، فكان لهذه التدابير الحازمة في استئصال الداء أثرها الحميد

إنها عادته في تعقب الأمور ،وملاحقة أسبابها البعيدة سيبثها بين كشافيه على أوسع نطاق

إنها الروح العلمية التي تذهب بالحوادث إلى ينابيعها ،وتعالج الداء أسبابه

كان بادن باول لا يفتأ مسع ذلك يقول أن العمل فضل علاج لأمراض فكان لذلك يمنح ثقته لضباطه ويترك لهم المجال ليأتوا فيه بقسطهم من الجهود وكان يلخص رأيه في ذلك بثلاث نقاط :

1. أنط بكل من رجالك مسؤولية يقوم بها بوسائله
2. حبب التدريب إليهم وليكن لكل عمل من أعمالهم دوفعه من اللذة والمتعة
3. نظـم العمل في وحدات من الرجال صغيرة تتنافس فيما بينها وتتراحم، في أشغال داخلية في الثكنة ،أو خارجية في العراء

هـي أراء في تصرف الرؤساء مع مرؤوسيهم، طبقها بادن باول بحرفها وروحها، فحببته إلى ضباطه، حتى انقادت له أعنتهم فأصبحوا له أطوع من بنائه

وليس بأصدق من شهادة احدهم في هذا الصدد:

"لم تذهـب الـثقة الـتي أولاها بادن باول رجاله دون جدوى واني لأذكر احدهم، وقد كان سيئ السـمعة في الجـندية، لا يعتمد عليه في أمر ، ولا يعلق عليه من أمل ،فما أن استلم بادن باول قيادة الفـرقة حتى عهد إليه فيها بإحدى المسؤوليات الكبرى التي لم يكن لينتظرها مما بعث في نفسه الهمة، فاكـب على العمل بنشاط لا يعرف مثله، فخور باختيار رئيسه له لمثل هذه المهمة ولم يقف تحسن سـلوكه هذا على زمن وعلى رئيس فلقد أبدى ،فيما بعد في حرب البوير من الشجاعة وأدى من

الأعمـــال مـــا استحق عليه رفيع الأوسمة، فكان تقدير بادن باول له فاتحة عهد جديد من الإصلاح والتقدم، إذ اخذ يثق بنفسه، بعدما رأى من ثقة رئيس به

كتب غيره :

لقـــد كان لبادن باول شعبية في الفرقة واسعة شعبية لا تتنافى مع الهيبة .. بحيث انك تكاد لا تجد في الفـــرقة مـــن يـــأتي مخالفة أو يرتكب .. وكان يحسن ركوب الخيل، ويحب جولات الفروسية على صـــهواتها، .. جياد الفرقة دائما على أحسن هيئة وأصلح حال، حتى ماكنا .. التفتيش إذ كنا دائما متهيئين له كأنه على وشك أن ينقض علينا .. كان بادن باول يلقي عن هذه الأمور كلها المحاضرات النظرية .. يطبقها أثناء التدريب يقوم به في ساعات من الليل والنهار .. رحاله وحدانا، أو أزواجا، لـــيقوموا بجولات من الاستكشاف .. طة ويأتونه بعدها بتقارير مفصلة عنها ، وقد تتطور مثل هذه .. التدريبـــية إلى نوع من المناورات ليقوم الجواسيس والطلائع فيها .. وكان لا يفتأ يقول بضرورة الوقوف دائما على قدم الاستعداد .. الفرقة من الخيالة ، ما يكاد الأمر يبلغها بالتحرك حتى تكون قد .. بكامل عددها وعتادها ..المناورة المفاجئة

.. رجاله عنه حكايات تقضي منها يعجب فيقولون انه لا ينام، ولا .. ولا يغفل عن أمر ولا يعرب عـــنه حادث وقد ينام ولاشك ..في اجتماع للضابط لكنني كنت على يقين من انه سوف يرسل إلي ..يـــره في الساعة الثانية صباحا، طالبا مني أن أقوم بتنفيذها على الفور ..له نظرة في الرجال صادقة ، فكان لا يختار للمهمة لأصاحبها"

وان العجـــب ليبلغ منا مبلغه وعندما تعلم أن له أيضا، بجانب حياته من الناس ،حياته مع الكتب حياة درس ومطالعـــة ينمي بها ثقافته العامة والخاصة، ويوسع بها دائرة معارفه إلى أقصى ما يمكن فكان في ذلك مثالا لضباط فرقته

وكـــان له في الفرقة أيام استراحة يقضيها في الصيد والقنص، يستمتع بها استمتاع يدلنا على مداه ما كتـــب عنها في مختلف مؤلفاته، وكان له ميل للفيل لا ينازعه فيه غيره من الحيوانات وللفيل في كتبه أجمـــل الصفحات – وان قلمه ليسيل بليغا عندما يطرق موضوع الحيوانات- وهذه فقرة له عن الفيل ،يقول فيها:

"لـــن تطـــاوعني يداي على قتل الفيل، لأني عشت مدة بين الفيلة واستخدمت الداجن منها في شتى شـــؤوني ، وأنهـــا لمتعة لي أن انظر إلى فيل اتملى منه، اترك لعيني تسرح في جسمه، تلاحظ منه كل بـــادرة، وكل حركة وسكنة، واني لأجد من القساوة أن يقتل المرء فيلا هو من هدوء الطبع، وعظم الجثة، وروعة المنظر ، وطول العمر، ما تعلم وكم خطر ببالي من تشبيه جميل جدا الفيل لي فيه، وهو يسير في مرج اخضر يتماوج النسيم بأعشابه، كأنه سفينة فوق بحر، وفي بعض المروج الخصبة الريانة لا نرى من الفيل إلا عالي جسمه فيسير جوادي بجانبه كما يسير قارب صيد في البحر بجانب مركب

شـــراعي ، وانـــك لتشعر الشعور ذاته إذا ما اعتليت يوما ظهره لسفر فانه ليهتز بك في سيره اهتزاز السـفينة إذ تمخـر العـباب وعندما يقف بك، فانه لا ينفك يهتز بك ويتماوج، كما تفعل الرياح بالســفينة التي ألقت مراسيها تعلو بها وتهبط وتتأرجح،ما إذا سار في الغابة، وكنت أنت معتليا ظهره داخل الهودج، فانك لتختال نفسك على ظهر سفينة في عرض البحار

أنهـا لصفحة لا تنسى من الوصف الجميل من الأدب العالي ، ألهمته إياها نفسه الشاعرة تهتز أوتارها لكل مشهد رائع من مشاهد الطبيعة

في سبيل الطلائع

هذا عنوان كتاب ظهر لبادن باول في تلك الردحة من الزمن، كان له رواجا وأي رواج، ولقد مر بنا ذكـر غيره من أثار قلمه، وان ما حدا ببادن باول في أول الأمر إلى الكتابة ،وذلك في الصحف، إنما كان ما عاناه في بدء حياته العسكرية من ضيق ذات اليد، فكان يستعين على العيش بقلمه، والحقيقة أن اســتجاب في ذلــك إلى نداء في ملح إلى موهبة أدبية من طرز رفيع ، فلقد كانت له نظرة الفنان تنفذ إلى أعماق الأشياء تكتشف منها ما شاق وراق، ليرسمه بعدئذ على اللوحة خطوط وألوانا، ويثبته عــلى الورق، بالقلم والمداد، كلاما وبلاغة، كما وكانت له مقدرة عجيبة على جلو غمض الأمور وأعــوض المسائل، في عبارات تأتي فصيحة اللسان متينة التركيب كأنها سبكت سبكا، لا تترك زيادة لمستزيد

وهكــذا بــدأ بكتاب صغير عنوانه في أول الصيف ظهر عام 1883 على شكل ما درج اليوم بين الطــلاب من كتب الملخصات والمذكرات انه بالموجز أشبه ، وضعه عام 1884 كتاب واستطلاع واستكشاف وهو .. الجنود سوف يتطور كثيرا بين يدي بادن باول ، ويستغني ..حتى ليصبح له يوما في الكشــفية شــأنه، وهـــو بأســلوبه، لا..عن سائر كتبه، انه يعرض أولا للأفكار العامة والمبادئ الأساســية..والاستكشــاف، ثم يأتي لها بالأمثلة ،يستقيها من خبرته ،ومن خبرة .. ومن مطالعاته، ومحور الكتاب الملاحظة ،عليها يقوم البناء كله ..

.. إلا يفوت نظر الكشاف شيء فليكن له عيون مبثوثة وراء ..عيون تسعى بين يديه،وعيون مرسلة إلى كــل الجهــات، بحيــث يلتقط.. الأشياء وظواهرها ما خفي عن عيون غيره، وليدقق النظر في ..يســلك، طابعــا في ذهــنه صور معالمها وشاراتها، وليلتفت إلى ...حين إلى أخر، ليحفظ صورة الأماكن التي يمر بها ،حتى يجد .. دون مشقة

كما نرى ، كتاب تعليمي توجيهي ولذلك فقد أتى خاليا من ..التصوير التي امتلأت بها سائر كتبه

..كـــتاب "إرشـــادات إلى الخيالة " ظهر عام 1885 وكان في أصله ..ألقاها في الفرقة الثالثة عشرة للخـــيالة، يـــوم كـــان فـــيها ملازما، وأننا ..في هذا الكتاب أطراف الخواطر والأفكار عن الفصيلة ،والمخيم، .. والارتياد، ووضع التقارير واخذ الرسوم ،وما إلى ذلك ..كتبه في تلك الحقبة فهو دون شك كتابه " في سبيل الطلائع" الذي صدر عام 1899

لم يكـــد الكتاب يظهر حتى قامت حوله ضجة سارت به إلى كل الأقطار، واقتحمت به كل الميادين ،مـــن عسكرية ومدنية، فزودت به قيادة بعض الفرق جنودها، وتلقفته أيدي المربين ،يستلهمونه في حاجات التربية والتعليم حتى بيعت منه المئات في أسابيع، وظهرت له طبعات مختلفة في لغات عديدة

يـــتحدث الكـــتاب أولا عما يجب أن يتصف به الجندي الكشاف من صفات ثم يبحث عن الوسائل لتنمـــية هذه الصيفات فالموضوع الأساسي إذا هو" ما هي العملية لتنمية صفات الشجاعة والاعتماد عـــلى الـــنفس والـــثقة بـــالذات والاطمئنان، والحرص فهناك من الرجال من لا تنقصهم الشجاعة، فيقـــتحمون كـــل الصعاب ، حتى إنهم ليذهبون إلى الجحيم إذا ما أرسلوا إليه، لكننا بحاجة ماسة إلى رجال يذهبون إلى حيث يرسلون، ثم يعرفون كيف يعودون إلينا سالمين ليضعوا التقارير عما ارسلو به "

وحسبنا دلالة على مضمون الكتاب عناوينه: البحث عن الطريق – اختبئ – اقتف الأثر – قرأ الأدلة – رسم – ضع التقارير- تحسس

ويتوســـع الكتاب في موضوع الفصيلة ،فيقول بضرورة خلق وحدات صغيرة من ستة رجال يقوم في كـــل مـــنها التدريـــب اللازم ، ويقوم فيما بينها التسابق في شتى الحلبات، من رسم ، والملاحظة، والاستكشـــاف، واللعـــب، وانـــه لأول من نادى بالألعاب وسيلة للتديب والتعليم، وكم من لعبة اخترعها بادن باول لا تزال إلى اليوم مثار الحماسة بين الكشافين

وليس بادل على طريقة الكاتب من الأمثلة التي أوردها في كتابه" .. منها اثنين

المثل الأول :

ضربنا خيامنا

المثل الأول:

ضربنا خيامنا في بقعة من الأرض جبلية، ونحن نظن أن العدو في .. لإبل الأعلم له بوجودنا، وأخذت معـــي بعض الرجال وذهبت في جولة استطلاع ليلية نستكشف فيها مواقع العدو،وفيما كنت أدور حول الأمكنة المطلة على المخيم، شاهدت فجأة ومضة لمعت كالبرق ثم ..،وعاد الظلام الدامس مخيما على الأرجاء وبدا لي أن مثل هذه ..لا تأتي إلا عن احتكاك عود من الثقام ..

.. عـــود الثقاب إذا فتح علي أفاقا من المعلومات فعرفت أن العدو لا..مكاننا، وان على الأكمة من علـــيها،لمراقـــبة مخيمنا، وان الأكمة، ..عليها عادة من نافخ نار، لتعج الآن بالمتربصين بنا المتيقظين،

..الكــثيرون، لان الفــرد منهم، على ما اعلم من طباعهم، لا يجسر على .. الأكمة وحده في الليل، وأنهم لفي يقظة، لان ما أتى به احدهم ..غال عود الثقاب ليدل على قيامهم ساهرين، وان لنقوم من ســهرهم ..لا تخفى ،لأنهم على ما علم من عادتهم، ما كانوا ليظلوا إلى مثل ..ساعة ساهرين لولا ما يبغون من مراقبة حركاتنا

..ما عرفناه على هذه الصورة إلى تغيير خططنا فلقد أتينا ..كشف مواقع العدو، حتى تسير إليه تحت جــنح الظلام، فتنفض عليه ..عين غرة ، فإذا بنا نجد انه لعلى اشد ما يكون من الحذر واليقظة، وان العيون قد بثت علينا ليل نهار، وان سيرنا إليهم في الليل لم يعد ليخفى عليهم و لم يبق له من جدوى، إذ لا يلبــث الرقــباء على الأكمة أن يفضحوا امرنا بنيران يشعلونها في وقتها إنذارا لقومهم بالخطر المداهم

لقد كان لعود الثقاب هذا شأنه في استجلاء الموقف وتغيير الخطط

المثل الثاني:

كــان الهواء ناشفا، والسماء صافية، وأديم الأرض يابسا، بعد أمطار غزيرة هطلت منذ يومين، وكنا نســلك طــريقا وعرة في جبال كشمير، وبينما أنا سائر لفت نظري حجرة يحجم جوزة الهند فوق جذع شجرة فتساءلت: ما أتى بالحجر إلى حيث هو من الجذع و لم البث أن عرفت الجواب

لقــد كان علي الجذع، بجانب حجر، قشور من الجوز مهشمة كما كان أيضا قشور غيرها بالقرب مــن صخرة قامت في الجنوب من الجذع و لم يكن هناك لا شجرة واحدة من الجوز على مسافة إلى الشمال من الجذع ،وكان في أسفل أثار طين يابس قد وقع هناك من نعل واستنتجت مما رأيت:

إن الــرجل كان ينتعل نعلا، ويحمل على ظهره حملا ولولا ما كان يحمل من حمل لكان جلس على جــذع الشــجرة أو بالقرب منها، بينما نراه قد جلس هناك، على الصخرة العالية فاسند إليها ظهره وحملــه، واخذ يأكل الجوز ويرمي بالقشور حيث هي إلى الآن، وانه راجل وليس امرأة ، لان النساء لا يجلسن على ظهورهن من أحمال،إن الرجل كان في سفر، إذ انه لم يكن،كعادة بني قومه، حافي بل منتعلا نعلا

إن الــرجل كان يسير إلى الجنوب، فلقد قطف من الشجرة التي في ..،واخذ يكسره بحجر هناك، ثم تابع طريقه إلى الجنوب، وما ..الصخرة، حتى أسد عليها ظهره وحمله، واخذ يأكل ما معه ..

.. إن الرجل قد مر هناك منذ يومين، إذ كانت الأمطار تهطل، لان ..التي تركها وراءه، تدل على أن الأرض،يوم سار عليها ..لا وطينا

..موجز قائلا:

.. هناك ،منذ يومين ،رجل مسافر، يحمل على ظهره حملا، .. الجنوب"

..تقدم أن أسلوبه يقوم، أكثر ما يقوم، على الملاحظة .. ولاغرو فهما أساس كل علم ومعرفة

.. الكتاب الصلة بين الجندي والكشفية، فلقد كتبه للجنود، فإذا .. حدود الجيش وينتشر في صفوف الشعب، بين أرباب التربية، ..وبين الشبان، يتحمسون له .. ويأخذون بطريقة وأساليبه .. بادن باول إلى إعادة النظر فيه، وإخراجه في طبعات جديدة ..للجنود، وبعضها للشبيبة

لقد استكملت آراؤه فيه مراحل تطورها فبلغ فيه، في شؤون الكشفية مبلغا من النضج

لقـــد حان له ، بعد أن نشر أساليبه بين الجنود، أن ينشرها بين الشبيبة، فيطبقها على مدى أوسع، في منظمة الكشاف لم تعد الساعة لذلك ببعيدة

مافكنج

تجهم الجو في أفريقيا الجنوبية، وتوترت العلاقات بين البريطانين .. والبوير شعب من اصل هولاندي، استعمر البلاد قبل البريطانين، ..فيها قدمه، ووطد أركان سلطانه، واستولى على زمام الأمور .. البلاد ،حـــتى أصـــبح فـــيها الطـــبقة السائدة دون منازع، فكان لابد ..اصطدام يقع يوما بين البوير وبين البريطانين، السادة الجدد، اخذ ..هما يستعد له، بينما وقف السكان الاصليون من هنود وغيرهم، من ..الصراع، موقف من لأحول له ولا طول، لا يوالون واحدا من ..معسكرين على الأخر، ويخدمون كلـــيهما عـــلى السواء، حسبما تقتضي ..حاجاتهم، انه شعب مغلوب على أمره ، لا يبالي من يقوم منهما عليه ..لا مفر ،مستبدل سيدا بسيد

لا مجـــال هنا للخوض في أسباب هذه الحرب، لتبريرها أو لشجبها، أنها، على كل حال،كما وصفها بادن باول ذاته" من شر الحروب" ولقد ..له عن تلك الحرب، وأولئك المحاربين، كلام حق، في رسالة كتبها ..خمس سنوات من انتهاء الحرب إذ وصفا الجو وخمدت الأهواء فقال :

" لقـــد زرت أثـــناء طـــوافي الأخـــير في البلاد، عددا من أصدقائي البوير، فتبادلت معهم الخواطر والذكـــريات عـــن الحـــرب التي قامت فيما بيننا حديث وجد كل منا لذة في خوضه بعد ما هدأت الأمور، واستتب السلام واني لأكن لهذا الشعب عطفا وتقديرا، فلقد عرفته عن كثب، وخبرته خبرة شخصية، يوم كنت عضوا في اللجنة المختلطة التي تألفت بعد الحرب من البريطانيين والبوير انه شعب يتحلى بالكثير من المزايا الحسنة والصفات الجديرة بالتقدير

ولقـــد استخفت السلطات البريطانية يومئذ بقوة البوير،واستصغرت شأنهم، ولم تعر أمرهم حقه من الاهـــتمام، إذ كانـــت عـــلى اعتقاد بأنهم لن يصمدوا طويلا أمام جيش نظامي، وان الحرب،إذا ما وقعت، لن يطول أمدها أكثر من اشهر معدودات، فكان لهذا الخطأ وقع فيه البريطانيون أوخم النتائج ، إذ عاد احتقارهم للبوير بالوبال عليهم

كـــان بادن باول أثناء ذلك يقضي عطلته في إنكلترا ،وإذا باللورد ولسلي، القائد العام، يستدعيه في احـــد أيـــام حزيـــران إلى وزارة الحربـــية على وجه السرعة، وكان من عادة القائد العام أن يباغت مســـتمعه، مباغتة يغمز بها عوده، بمتحن بها متانة أعصابه، ورباطة جأشه، فبادر بالقول وهو يحدجه بنظر ثاقب:

عزمت على إرسالك إلى أفريقيا الجنوبية في مهمة خطيرة

لبيك، يا مولاي

أرى أن ترحل السبت

كلا، يا مولاي

فتجهم وجه القائد:

ماذا تقول؟

إن بواخر أفريقيا الجنوبية لا ترسل السبت، ولذا فسأرحل الجمعة، فقهقه القائد ضاحكا مسرورا، ثم اخذ يطلعه على المهمة التي انتدبه إليها ، فقال:

يـــبدو أن الحرب بيننا وبين البوير واقعة لا محالة، ولذا فاني مرسلك إلى هناك برتبة قائد قوات الحدود الشمالية الغربية، ومزودا إياك بالصلاحيات الواسعة، وقد شكلت لك هيئة معاونيك وأركان حربك

وفي المساء بادر بادن باول في مكتبه ، منكبا على الخرائط يدرسها ، ويدرس خطط العمل

وكانت التعليمات التي زوده بها القائد العام مقتصرة على الخطوط الكبرى التالية:

تجنيد فوجين من المشاة بكامل عددهما وعتادهما

تحصين الحدود والمدافع عنها، إذا ما نشبت الحرب

أشـــغال جيوش البوير في المناطق النائية القصية، بعيدا عن احتشاداهم الكبرى وقواهم الرئيسية، بحيث تظل القوى منشتتة لا يتم الاتصال بينهما

أمـــا الوســـائل لتحقيق ذلك كله فمتروكه له، وما كانت هذه التعليمات العامة لتضيق عليه الخناق، وتسد في وجهه السبل فيداه مطلقتان في كل ما يريد

ولقد كتبت عنه يومئذ إحدى المجلات قائلة:

"إن بـــادن باول رجل مقدام، وفارس مغوار، يحب مهنته حبا جما، لكنه يمارسها على طريقته الخاصة، ويكره فيها القيود التي تكبل الحرية، والأوامر التي تسد السبل، فيصبح المرء معها آلة صماء تتلقى كل حـــركة ،وعقلا جامدا لا يفتق بحيلة، وليس مثل طريقته لتنمية الشخصية وبعث المسؤولية، انه يعتمد كل الاعتماد ،في تدريبه للجنود، وفي تسييره للحرب، على الملاحظة الواعية، تستوعب كل الظروف ،لا يفوتـــه منها شاردة ولا واردة، كما ويعتمد على البصيرة الثاقبة، والفكر المتوقد، والمحاكمة النيرة، والجهود الشخصية، تتفهم الأوامر، وتطبقها على شتى الأحوال، وتحققها بالأساليب الملائمة"

ولما اقمه بعضهم باحتقار الأساليب التقليدية التي تتمشى عليها المدارس العسكرية، انبرت صحيفة كبرى تدافع عنه بما يلي:

" إن بادن باول جندي من طراز خاص، انه لا يزدري بأنظمة المدرسة العسكرية التي تخرج ضباطها على أساليب مقررة قامت على خبرة الأجيال، إذ ليس مثله من يقدر قيمة الأوامر المفصلة، والقوانين الدقيقة ،حق قدرها ،لكنه يرى أن الجهد الشخصي والاجتهاد الفردي هما من الأسباب الرئيسية لكل تثقيف وتربية، ثم أن له من طبيعته الغنية ما يفتق له كل أنواع الحيل والوسائل، يواجه بها الطوارئ والمفاجآت كما أن له من نظره والدفاع وصرف جهده لكسب السكان الهنود والزنوج، وعددهم في المدينة ستة أضعاف البيض، وقد سرى في صفوفهم، في أول الأمر، بعض الاضطراب والتململ، لكنهم ظلوا إلى أخر الحصار موالين للانكلترا، مخلدين إلى الهدوء والسكينة، يستمتعون بما وفره لهم بادن باول من أسباب العيش ،إلا انه مع ذلك لم يكن ليأمن جانبهم، فالجاسوسية لحساب العدو كانت منفشية فيما بينهم، وكان يعلم أن الجواسيس منهم على اتصال دائم بالعدو، يتسللون إلى صفوفه، بخفتهم المعهودة، ليزودوه بالأخبار

ولم يفت بادن باول أن يستخدم حتى الجواسيس أنفسهم لغايته، كما كان يستخدم كل ما يطرأ من ظروف ليس في اليد من حيلة لدفعها، فإذا ما أراد إبلاغ الأعداء خبرا كاذبا يخدعهم به خدعة تنطلي عليهم، عمد إلى نشر الخبر في المدينة وهو على يقين انه لن يتأخر وصوله إلى الأعداء وفي الصورة التي أعلنه بها، عن طريق الجواسيس

ولقد قيل قديما أن الحرب خدعة، ولم يستطع بادن باول أن يصمد ،طوال اشهر عديدة، إلا بفضل الحيل والخداع التي كانت يستنبطها كل يوم، لا ينضب لها معين، يريد أن يدخل بها في روع العدو ما يريد، من انه قوي، وان المدافعين عن المدينة كثيرون، وان الذخيرة متوفرة، وان المعنويات عالية، فيجعل العدو هكذا في شغل شاغل، لا يهدأ له بال، ولا يستقر على حال، يبادره كل يوم ببادرة، فيظل في تيقظ دائم وتأهب مرهق

ولم يكن ليقصر عمله على الدفاع والمقاومة لقد كان يتحين الفرص لشن بعض الهجمات، ينقض بها عليهم، في هذا القطاع أو ذلك، على حين غفلة

وكان الأحد يوم هدنة بين الطرفين، وكان بادن باول يحوله إلى يوم مرح وترفيه، فينظم الألعاب الرياضية، ويحي الحفلات الموسيقية، ويخرج بالتمثيليات المبهجة، يقوم هو نفسه بأهم الأدوار فيها، لاسيما الهزلية منها، يتنكر فيها ويتزيا، حسب المقام، دون أن تنال من هيبته، في أعين الجنود، أو تحط من مقامه لديهم، وفي بعض الليالي التذكارية كانت الأسهم النارية الملونة تخترق كبد السماء، بعد ما يكون البوير قد أحيطوا علما بأنها أسهم بريئة لا يخشى منها عليهم من شر

كـــان ذلـــك ليرفـــع من معنويات الجنود، ولينفخ فيهم روح الاطمئنان والشجاعة، فتتجدد القوى، وتتشـــدد العـــزائم، وتـــزول غوائل الملل والضجر، وهما شر ما تبتلى به حامية طال الحصار عليها، وامتدت بها الأيام

لم تكن كل وسائل الدفاع متوفرة لدى بادن باول فلقد كان هناك نقص كبير في العتاد، وفي المدفعية وفي الذخيرة فكان يحتال لذلك ما استطاع يستخدم من يجد فيهم الكفاءة والمهارة من أرباب المصانع والمهـــن، ليســـتعيض ما أمكن عما ينقصه، بأوائل ومعدات من استنباطهم، ومن إنتاجهم، وكانت عـــنابر الســـكة الحديديـــة، التي كانت المدينة إحدى محطاتها الرئيسية تمده بما يلزم لذلك من الآلات والفولاذ والاختصاصين

وكـــان في المديـــنة أربعة من مراسلي شركات لأنباء وقد رأى بادن باول انه قليل الكلام، يكاد يلزم الصـــمت، إلا انه كثير الحركة والعمل أكثر ما تراه، في الليالي الساكنة المظلمة، متجولا بالقرب من خطوط البوير، يسير بخطى خفيفة سريعة، مطلا هنا على كومة من الصخور ينظر ما وراءها، متواريا هناك وراء عوسجة تخفيه عن الأنظار، زاحفا مرة، دأبا مرة أخرى ، لا يحيد بنظره عن خطوط العدو ومعسكراته، حتى إذا تم له ما راد من معرفة شؤونه عاد إلى مقره يدرس الخطط، ويجددها، ويحورها، وهو في طريقه يباغت هذا الخفير متغافلا، وذاك لاهيا، إلى أن يصل إلى مقره، وقد جمع من المعلومات حصادا وافرا يستغله عند الحاجة،

طـــال الحصـــار، ومل المحاصرون فذهب القائد كرونجه بستة آلاف من البوير يحاول نصرا أسهل في مكـــان أخـــر، تاركا وراءه القائد سنمان مع ثلاثة آلاف ،إلا أن وطأة الحصار على المدينة لم تخف بذلك كثيرا، كما وان حالة البريطانين العامة، في مختلف جبهات القتال، لم تتحسن فلقد منوا منذ بدء الحرب، بخسارة تلو الخسارة في سترنبرغ، ومكرفونتان، وكولنسو ولا يزال الحصار مضروب النطاق على كمبرله، ولاوسميت، مما كان له أسوأ الأثر في إنكلترا، ولولا ما كان يرد عن مافكنج من أخبار صمودها الباسل ،ودفاع حاميتها المستميت، لكان القلق بلغ غايته عن هذه الحرب التي سارت الرياح فيها بما لا تشتهي السفن

ولمـــا جـــاء اللورد كتشنر في الكاب عام 1900 لتقلد القيادة العامة ، ظل طوال اشهر يقتصر عمله على إمداد مافكنج بالثناء والتشجيع فحسب، فهو لم يرد أن يغرر بالحامية بوعود من الإمدادات قد لا يســـتطيع أن يبر بها، في الظروف الحاضرة، وحاول بادن باول من وجهته أن يفك الحصار ليتصل بجـــيش بلومـــر القـــادم لمســـاعدته، فشن هجومه على احد حضون البوير، لكن الهجوم فشل، لان الجواســـيس كـــانوا قد ابلغوا أمره إلى الأعداء فكانوا له على قدم الاستعداد، أنها الهزيمة الوحيدة التي منيت بها الحامية طوال مدة الحصار، ترك فيها على الحضيض جثث ثلاث ضباط وعشرين جنديا

وكـــأن هذا الفوز الجزئي بعث حمية البوير فاحتدمت مدفعيتهم تقصف حتى المستشفيات ،وحتى مخيم النســـاء، تخـــرق كـــل قوانـــين الحرب، ولا تحفظ لشيء حرمة، مما حدا ببادن باول إلى رفع صوته بالاحـــتجاج الشديد، لأنه كان قد اطلع البوير على مواقع هذه الأماكن، على مخطط للمدينة أرسله إليهم منذ بدء الحصار

وقامـــت، مع طول الحصار، مشاكل الإعاشة والتموين تنذر بالويل ، واحتجز بادن باول كل ما في المدينة من أغذية ومؤن، وأعلن نظام التقنين والبطاقات، يسري على الكبير والصغير دون لين، ودون استثناء، لا النساء والأطفال فقد خصهم بحصص أوفر من السكر والحليب

ونظـــم كذلـــك المرافق العامة، فحشد لها الأولاد، من سن العاشرة وما فوق، دربهم على القيام بها، يضـــطلعون بشتى المهام، ينوبون فيها مناب الرجال وقد انصرفوا جميعا إلى عمليات الحماية والدفاع، فكانـــت،بـــين الأولاد فرقة الدراجات يسعون عليها لحمل الرسائل والبلاغات، وكانت فرقة الترفيه تـــنظم ملاهي الأحد في حفلات ألعاب وموسيقى وتمثيل، فكانوا يقومون بما يكلفون به أحسن قيام، وقد راقتهم المسؤولية التي ألقيت على عاتقهم، وشاقهم النظام الجديد الذي انخرطوا فيه

هي إحدى الخطوات المباركة التي ستقود بادن باول يوما إلى حركة الطلائع الكشفية

وتحولـــت رحى الحرب، في شباط وآذار، إلى حصون المدينة الشرقية، فكانت المعارك حولها سجالا، يتـــنقل الظفـــر فيها بين المعسكرين، دون أن تقع المعركة الحاسمة، إلا أن وجه الحرب، مع ذلك اخذ يـــتغير، وأخذت هزائم البريطانيين الأولى تنقلب انتصارات في كل الميادين، ففك حصار كمبرلة، ثم لاوسميـــت، واستســـلم كرونجه، وتقدم بلومر أشواطا في سيره الحثيث نحو مافكنج، واستطاع احد مساعديه أن يتسلل من خلال خطوط البوير إلى قلب المدينة المحاصرة، حيث اتصل ببادن باول وأطلعه على تطورات الحرب الأخيرة، ثم نصح لبادن باول أن يخرج من المدينة من يستطيع من السكان تخفيفا من وطأة الضائقة الغذائية التي أخذت تجتاح الأهلي فاخرج منهم ألفا

إلا أن جـــيش بلومر اضطر إلى التراجع أمام قوى قادمة من البوير فكانت إمدادات جديدة تحت قيادة أيلوف ،انضمت إلى جيش سنمان المحاصر

ونشبت المعركة الحاسمة في 12 آذار ،إذ هاجم أيلوف من الغرب ، بينما كان سنمان يسانده بهجوم أخـــر مـــن الشرق،واستطاع رجال أيلوف أن يقتحموا الحصون، ويخترقوا خطوط الدفاع، ويدخلوا المديـــنة القديمـــة، ويلقوا فيها النار، ثم تابعوا زحفهم، حتى بلغوا المقر العام للشرطة فاسروا الكولونل هور وثمانية عشر من رجاله، وكان بادن باول أثناء ذلك في مرصده على السطح يراقب سير المعركة، فمـــا كاد البوير يتغلغلون في المدينة حتى أصدر أوامره إلى فوج المأجور كودله بتطويق البوير الذين في المديـــنة، ليقطع عليهم طريق الرجعة، بينما أرسل فوجا أخر في هجوم معاكس ضد أيلوف، وهكذا

تقطـــع حبل المهاجمين، ووقع أيلوف ذاته أسيرا مع عدد من جنوده، ثم جرد الأسرى من سلاحهم، واقتادهم طلائع الفتيان تحت حراستهم إلى قلب المدينة

واليك ما كتب مراسل رويتر عن هذه المعركة:

كنت يومئذ بجانب بادن باول اشهد معه هجوم أيلوف، انه حقا لقائد الفذ، فلقد كان يعزم على أمر بسرعة، وينفذ بسرعة، ويرسل أوامره جلية واضحة، فلا تردد،ولا تذبذب، ولا اضطراب، ولقد رد على هجوم أيلوف بهجوم مثله ألقى فيه كل الاحتياطي إلى الميدان ،فأنقذ المدينة من كارثة واني لأرى في بـــادن باول كل صفات القائد فلديه الشجاعة والإقدام، وسرعة الخاطر، ومضاء العزيمة، وإصابة النظرة، وثبات المسعى

وعندما ادخلوا عليه أيلوف أسيرا بادره بالقول:

مساء الخير، يا ايلوف، لقد أتيت في ساعتك للعشاء وكأنك منه لعلى موعد سابق

وفي أثناء العشاء لم يعرض لهزيمة خصمه بكلمة، ولم يأت بينهما عن الحرب من ذكر

وفي اليوم ذاته بلغ بادن باول أن نجدات تحت قيادة ماهون في طريقها إليه، فكان يتتبع أخبار سيرها، ويســتعد لمؤازرتهـــا، بهجوم يشنه في أوانه، ولما اقتربت من المدينة، اصطدمت بقوات البوير المرابطة، فاشـــتبكت معها في القتال بينما خرجت حامية المدينة تساندها في هجوم عام، وهكذا نشبت أخيرا المعـــركة الفاصـــلة بين الجيشين، دار رحاها على قوى البوير، فشتت شملهم، وانفتحت المدينة، بعد حصـــار دام مائتين وعشرين يوما، تستقبل بأقواس النصر جيشها الظافر، الذي دخلها دخول الفاتحين الغزاة،

كـــان ذلك في السادس عشر من أيار عام 1900 وقد دام الحصار كما ذكرنا مائتين وعشرين يوما، أطلقت في أثنائه على المدينة عشرون ألف قذيفة مدفعية، وبلغ عدد الضحايا فيها، من قتلى وجرحى ومفقودين ، ثمانمائة وثلاثة عشر محاربا ومدنيا

لنستمع الآن إلى ما قاله احد مراسلي الصحف، وقد دخل المدينة مع جيش ماهون:

كنا نرى، حيثما وقع نظرنا، أثار الهدم والتدمير ظاهرة للعيان في كل مكان، لا يخلو منها بيت، فمن فجـــوات فاغرة، ومن جدران متداعية ومن نوفذ محطمة، ومن حفر ،ومن ثغور، كان الحرب دارت رحاهـــا داخـــل أســـوار المدينة، ولقد أخذنا العجب كيف ظلت الحياة سائرة سيرها في وسط هذا الخراب والدمار

ولمـــا تألبت الجموع في الساحة العامة، واصطفت وحدات الجيش، وأخذت الحامية أماكنها من ذلك الحشـــد، وفيه الإنكليز ،والهولاندي، والهندي، والعربي،والزنجي ،تلا القائد خطابا يوافق المقام، وفيما كـــان يتكـــلم كنت أتصفح الوجوه، وأتساءل: " ما السر في صمود هؤلاء القوم، وهم من مختلف

الجنسـيات والشعوب، في حصار دام مائتي يوم ونيف ،تحت القنابل، في ضيق من المأكل والمشرب، وفي سهر من الليل والنهار؟

مـا كانـت الشجاعة وحدها لتكفي على الصمود ولا الذكاء وما كان البوير ،بعددهم وعتادهم، بعاجـزين عن الاستيلاء على المدينة، متى أرادوا ،في هجوم عام يشنونه بكل قواهم على كل المواقع، فمـا كان ليصمد أمام حشدهم حامية ، لماذا لم يثبتوا هذا الهجوم العام، الذي كان بادن باول يخشاه أكثر ما يخشى ويحسب له ألف حساب؟

لـيس مـن جواب شاف على هذا السؤال فلربما خانتهم العزيمة وعازهم التنظيم والتدريب، ولربما توصل بادن باول بدهائه إلى تضليلهم، فلقد كان الحصار، من أوله إلى أخره، خدعة بارعة، كان فيها للمـناورات والحـيل والتمويه دورها الهام، برع فيها بادن باول كل البراعة،حتى ما يستطيع احد أن يجاريـه في مـيدانها، إلا انه لم يكن رجل حرب وحيل فحسب، بل كان رجلا ،بكل معنى الكلمة ، ولقـد استطاع، بما تحلى به من صفات العقل والقلب ، أن يكسب محبة الجنود والأهالي، فوضعوا فيه ثقتهم، وقبلوا بكل ما طلب منهم من تضحيات وجهود ، بذلوها رضين"

..السـكان كمـا انه اوهن معنويات البوير، وأرخى من عزائمهم، وفت من عضدهم، فلقد قامت مافكـنج حصـنا منـيعا أوقـف جيشـا كبيرا من العدو، وشغله، وحال دون تغلغله في روديسيا ونجوانـالاند، كما أنها قامت منارة ساطعة في ظلمة الانكسارات العديدة التي مني بها الإنكليز في أول الحـرب، وانهالـت الرسـائل عليه من كل صوب، وكان أحبها إليه رسائل الشباب يطرون بطلهم المحبوب، ويطلبون منه النصائح، فكأنهم شعروا أنهم واجدون به رجلا يفهمهم، ويحقق أمالهم، ويكون لهم يوما اكبر صديق ،واكبر محسن

هذا جوابه لأحد نوادي الشباب:

"لا تقصروا جهودكم على مكافحة بعض عادات السوء ،بل اسعوا سعيا وراء الخير، اعني أن تعطفوا عـلى الغـير، وتخففـوا من كربته، فتؤدون الخدمات لم تعرفون ولمن لا تعرفون، وتغيثون كل من يقصدكم، بحاجة، وليس ذلك بالصعب، وأسهل الطرق لذلك أن تأخذوا نفوسكم بعمل صالح واحد تقومـون بـه كل يوم، فتتأصل هكذا فيكم عادة حميدة، تلازمكم الحياة كلها، ولا يصير أن تكون الخدمـة تافهة، والعمل وضيعا كأن تهرعوا إلى عجوز تريد عبور الشارع، أو تهيؤا للدفاع عن صيت احدهم تنهشه الألسن فالمهم أن تقوموا بعمل ما صالح مهما كانت قيمته

وهذه أيضا مرحلة جديدة ،سيكون لها ما بعدها في سبيل إنشاء طلائع الكشاف

الشرطة الأفريقية

دخلــت الآن حرب البوير في طورها الثالث والأخير، فلقد بدأت بطور الحصارات، بحصار مافكنج وغيرهـــا مـــن المـــدن ثم جاء طور التقلص والاندحار مني بها البوير في كل الميادين، وبدأ أخيرا طور العصـــابات، يديرها القائد دي فت من مكامنه المنيعة في الجبال، ولسوف تدوم هذه المرحلة الأخيرة مـــن الحـــرب زمـــنا ليس بقصير ،لن يستتب بعده الأمن والنظام إلا بالتدريج على مراحل، وبتدابير حكيمة رشيدة ،في حكم رفيق عادل

وكـــان أهم هذه التدابير إنشاء قوة بوليسية تصرف الجهود على تنظيمها وتدريبها ،لتقوم بما يتطلب منها من حفظ السكينة، وتوطيد الأمن وإعادة الثقة

أنهـــا لفكـــرة رائعة خطرت لحاكم أفريقيا الجنوبية، فأرسل يسأل السير روبرتس عن الرجل الجدير بالقيام بها فأجابه:

"لا أرى إلا بـــادن بـــاول، انـــه لها، فهو يتحلى بالصفات اللازمة ويتمتع بالشعبية الواسعة، وله من المقـــدرة على التنظيم ،ومن معرفة البلاد ومن العزم والحزم، ما يكسبه ثقة الآهلين، ومحبتهم، ويضمن لمساعيه النجاح"

ووقع الاختيار عليه فأعفى من قيادة جيشه لينصرف بكليته إلى المهمة الجديدة التي أنيطت به

رأى بادن باول أول الأمر أن يشد مسافرا إلى الكاب للتشاور مع الحاكم العام صاحب الفكرة واخذ وهـــو في طريقه إليه بعمل الفكرة في موضوعه، يقلبه إلى كل وجه، حسب عادته، حتى جاء الحاكم العـــام وفي جعبـــته مـــن الدراسات والخطط والتصميم، مالا يترك زيادة لمستزيد، وهو على طرقته المعروفة، يبني نظرياته على الواقع، على خبرته الطويلة للبلاد على معرفته الواسعة للرجال

وكتب في هذا الشأن يقول:

" لقـــد سررت كل السرور لهذه المهمة، لأني قديم العهد بإفريقيا الجنوبية ،ولي فيها أصدقاء عديدون مـــن الـــبوير ولقد شق علي كثيرا أن نلتحم معهم في حرب ضارية، أما الآن فعلي أن أسعى لإعادة الوئام والسلام إلى البلاد، فأصلح ما سببه الحرب من شر .. ومسنا من ضغائن فأكون مع الجميع على أحسن حال، وطيب صلات

وكانـــت الجماهير تحتشد حيث يمر قطاره، لتعرب لبطل مافكنج عن شعورها نحوه، وكان الاستقبال لـــه في مدينـــة بريتوريا رائعا، أما الكاب، عاصمة المستعمرة، فكان أثناء ذلك تتهيأ لاستقباله ، تقيم معـــالم الزينة وتعد المهرجانات وقد زحفت الجماهير الغفيرة لاستقباله تملأ خطة والشوارع المجاورة،

تتماوج وتهدر كالبحر، فما أن وقف القطار حتى بادرت الجموع إلى بادن باول وحملته، وسارت به في موكب الفاتحين ،بين الهتافات الحماسية تشق عنان السماء إلى قصر الحاكم

لـــن تكون مثل هذه المهرجانات الشعبية نادرة في حياته فلسوف يشاهد منها ما لم يشاهد احد غيره مثـــلها، ولسوف تكون الأربعون سنة المقبلة سلسلة من المهرجانات والأعياد يقوم بها الشباب في كل أقطار العالم إشادة بفضله ،واعترافا بجميله

انـــه لم يكـــن ليسعى إليها سعيا، ويتهافت عليها تهافتا، كغيره من طلاب المجد، لأبل كان يتحاشاها جهده، لكنه لم يكن ليزهد بها، أو يرفضها إذا ما اتته عفوا، بل كان يتقبلها بوجه طلق، باش، يفيض إشراقا وأنسا

وبعدمـــا أقـــام مدة في الكاب يتحدث مع ذوي الشأن عن مهمته انفرد بضعة أيام في دار صديق له خـــارج المدينة، يدرس الخطط، التي نال المرافقة عليها، درسا مفصلا، يختار لها الوسائل والأساليب، ويطبقها في برنامج للعمل دقيق واف، ولقد كان عليه أن يخترع، ويستنبط ويحتال، ما استطاع ،قياما بمهمـــة جديدة شاقة لم يسبقه إليه احد ، وليس له فيها من طرق سالكة معبدة،فتحها له غيره، يسير هـــو علـــيها أمنا مطمئنا، فهناك قضايا التطوع، والعرفاء، والتجهيز، والمواصلات، والذخيرة ،والمؤن والخـــيل والتدريب و المالية والتطبيب،والخدمات، وغيرها مما يتفرع منها م الملحقات والأذيال، وعليه أن يضع لكل ذلك الأنظمة ويهيئ الأسباب ويسعى إلى الوسائل وكان عليه أولا أن يجمع حوله عددا مـــن الضـــباط يعتمد عليهم فوجه انضاره لأول وهلة إلى هؤلاء الذين دربهم على أساليبه في فوج مافكنج، إلا أن حرب البوير لم تنته بعد، وقيادة الجيش لا تستطيع أن تستغني الآن عنهم

وكـــان في شـــتلنبوش معســـكر للتأديب يحال إليه من الضباط من ارتكب ذنبا، أو اقترف إثما، أثناء الحرب فأرسل بادن باول يطلب بعضهم ولم يندم فيما بعد على استخدامه لمثل هؤلاء فهو يعرف أن لكل جواد كبوة، ولكل رجل عثرة، وان أفضل وسيلة للأصلح أن تعاد الثقة وتتاح الفرصة للتعويض والتكفير

ثم اخـــذ يســـعى للحصول على مطلوبة من الرجال، فلقد كان يود أن يتقدم إليه منهم الشباب، من الذين ينوون أن يستقروا في لبلاد، ويبنوا ويؤلفوا الجاليات العامرة والمواطنين

وأملا بالحصول على مثل هؤلاء أرسل نداءه إلى أقطار الإمبراطورية البريطانية كلها

ولم يـــتأخر الجـــواب: شـــبانا كاما انتظر، وثقوا باسمه، فأتوه من كل أطراف الإمبراطورية ومنهم الموظفون، والعمال، والفلاحون، انظموا جميعا بحماسة تحت رايته

وباشر بادن باول العمل فاتخذ مركزه في مدينة مادرفونتان، بين بريتوريا وجوهنسبرغ واخذ يطبق في التدريب أساليبه المعهودة ،وتلك التي سنصبح يوما أساليب الكشفية ذاتها

أساليب ،حجر الزاوية فيها الفصيلة، يكلف العريف فيها: بستة أو سبعة من رفاقه، يكون هو مسؤولا عـــن تدريـــبهم، وتقام المباريات، ويحمي التنافس بين الأفراد والفصائل مما يدعوا إلى تنمية الشخصية وبعث الهمم

ورفـــض بـــادن باول رفضا باتا أن يفتح أبواب التطوع للجنود القدماء، قائلا أنهم قد درجوا على عـــادات لـــيس للاجتهاد الشخصي فيها من دور كبير ،فأصبحوا كآلة صماء لا ينقادون إلا للأوامر القاطعـــة المفصلة التي لا تترك من مجال لا لذات اليمين ولا لذات الشمال ،بينما هو بحاجة إلى شبان أذكـــياء يفهمـــون مـــن وراء الأوامر غايتها، ومن بعد الحرف روحه، فيعملون، لذكاءهم في شتى الظروف والطوارئ ليشقوا فيها طريقهم إلى الهدف

ولهـــذا فانه لم ينج من النقد والتهجم، استهدف لهما منذ البدء وما هو يكتب يوما إلى إحدى أمهات الجرائد في لندن الجواب التالي:

لفـــت نظري في جريدتكم مقالة عن شرطة أفريقيا الجنوبية، التي أقوم الآن بتكوينها وتنظيمها، ولقد أخذتـــني الدهشـــة لمعلومات توردها المقالة عنا ليست بصحيحة، كما وليست مما يرفع من شأننا في أعـــين القراء، فلقد شحنت بالاغلاط والمغالطات، ولابد من القول بان شروطنا للتطوع لا تزال هي مـــنذ شـــرعنا في العمل ،ومع ذلك فالتطوع سائر سيره، دون مشقة، والطلبات تنهال علينا من كل جانب، حتى أننا لم نستطع أن نقبل إلا واحد من ستة يطلبون التطوع، وسيتم لنا في أواخر أيار تنشئة وتدريب

عندما استدعاه الملك إلى قصره لير بن صدره بالوسام، كانت البلاد كلها تلهج باسمه، وقد أعدت له اســـتقبالات في مدن عديدة كان عليه أن يمر بها في طريقه إلى لندن كم سر الملك عندما بلغه أن بادن باول قد تهرب منها كلها، بسلوكه طريقا أخرى مما يدل على انه كان رجلا متواضعا .بمقدار ما كان رجلا شجاعا

ولما عاد بعد العطلة إلى أفريقيا، وقد اختصر عطلته ما استطاع كانت أعماله قد بدأت تأتي بثمارها، فأقام شبكة من مراكز الشرطة في كل نواحي البلاد، وقام بنفسه بجولة تفتيش عليها جميعها، قطع فيها ألاف الكيلومترات، طوال اشهر عديدة، لا ينام ليلتين متتابعتين على فراش واحد

ولمـــا عقـــد الصلح في حزيران 1902 كان بادن باول قد أنهى مهمته، وأخذت الشرطة التي ألفها ونظمهـــا تقوم بعملها المطلوب، على الأساليب التي تمرست فيها على يده بحيث أنفسح المجال أمامه لأعمال غيرها تنتظره

لم يطـــل الأمر ببادن باول حتى عهد إليه .بمهمة مفتش عام للخيالة فقبلها واستقل من الشرطة وقد أتم فـــيها عـــلى قوله أهم عمل في حياته وانه حقا لأهم عمل عسكري قام به ، لكنه سيقوم في السنين المقبلة .بما هو أعظم منه شأنا وأهمية

وقـــبل أن نختم هذا الفصل نورد شهادتين من رؤسائه عن هذه الفترة من حياته احدهما لتشمبرين ، قالها في مجلس العموم

"إن الشرطة ،التي عمل بادن باول على تأليفها وتنظيمها قامت بواجبها العسكري أحسن قيام، دون إن تهمـــل واجـــبا أخر القي أيضا على عاتقها :إلا وهو تصفية الحرب: وتهدئة الخواطر وإعادة الأمن والسلام"

والشهادة الأخرى هي للورد ملتر ،وما أجملها من شهادة قال:

" إن نجـــاح مهمـــة الشـــرطة السلمية ليفوق كل نجاح، حتى ليشعر المرء انه في بلد لم يعد لأسباب الخلاف والاضطراب فيه من وجود"

مفتش الخيالة

لئن يتوصل بادن باول وهو بعد في السادسة والأربعين من عمره إلى مرتبة مفتش عام للخيالة، فذلك مـــا ليس بالأمر اليسير لمثله فان لم يتخرج في مدرسة للخيالة، ولم يتدرج في مرقي هذا السلك إلا انه وان فآته ذلك المدارس الرسمية، فهو لم يفته التمرس الطويل، والخبرة الواسعة، وسعة الإطلاع،اكتسبها في سبع وعشرين سنة من حياة عسكرية مثالية فقد يطوف البلاد ويجوب أقطار الإمبراطورية الشاسعة مـــن الهـــند إلى أفريقـــيا إلى إنكلترا فكأنه كان يتهيأ لهذه المهمة ويعد لها العدة، فكانت له فيها أراء ونظريات، وابتكارات، شرحها لأولياء الشأن، مدة حية فألفت الدرس حرب البوير واستخراج منها ما جاءت به من عبر ذكرت في تقريره

لمـــن الأهمـــية بمكـــان أن تعهد إلى ضابط بمسؤولية وتلقى على أهم المسؤوليات في سن مبكرة منذ مباشـــرتهم خدمة ليتولوا هم قيادة وحدة التي قاموا على رأسها مهما كانت صغيرة وليعدو أنفسهم علها حاملين تبعة إخفاقهم ونجاحهم

علينا أن نبعث فيهم روح الإقدام بأساليب تقوم على الجد الشخصي والتنافس حتى لا يشبوا حاملين متكلين على أوامر رؤسائهم يحتمون بها، ويتهربون وراءها من كل مسؤولية إذ تكفيهم مؤونة الجهد مـــا إذ تـــدرب الضـــباط والجنود على استخدام ذكائهم، يعودون عليه في الطوارئ والصعاب، فان الرؤســـاء لـــن يجدوا من ضرر في منحهم، لتنفيذ الأوامر، مجالا أرحب للاجتهاد الشخصي ،ولسعي الخاص، فيأمنون الأخطاء التي لا بدا أن تصدر عن التقييد بالأوامر تقيدا أعمى لا تفهم فيه ولا إدراك

ومـــا إن صـــدر مرســـوم تعيينه في هذه المهمة الخطيرة، في مستهل عام 1902حتى شمر عن ساعده جـــد،يسعى للإحاطة بالموضوع من كل أطرافه، حتى لا تفوته من دقائق فائتة، ولذلك فقد رأى أن يـــبدأ بزيارة أهم مدارس الخيالة في العالم، ليستعيض بالملاحظة ولينظر عما فآته من معلومات الكتب

ودروس المـــدارس، فيسافر إلى ألمانيا، والى الولايات المتحدة وكندا والنمسا وروسيا في كل من هذه الـــبلاد مدارســـها العليا للخيالة ويلاحظ ويقارن، ويشخص ويجمع ..فيساعده عن سنين من دروس ومطالعـــات وقد فيه بنوع خاص النظام السائد في مدرسة فرنسا وفي سومور فلقد وجد مجتمع واسع شـــامل فهو لا يقتصر في العلوم المتعلقة بالخيالة، بل يتعداها إلى ثقافة عامة تشمل علوم الاستكشاف والدورات التدرج واستراتيجية والتكتيك وغيرها مما له صلة قريب أو بعيدة

أمـــا التفتـــيش ،فقد سار فيه على طريق جديدة، وأساليب شخصية، لم تجر عليها العادة فيما سبق ، فكـــان، عـــندما يـــزور فوجا من الخيالة لا يعير بالا للمظاهرات والاستعراضات، التي تقام لمثل هذه الظـــروف، يقضون وقتا طويلا في تهيئة أسبابها، على غير ما فائدة كبيرة نجنى منها، بل كان يمضي مع الفـــوج بضـــعة أيام يعيشها معه كأحد أفراده يدرس فيها عن كثب عمل الضباط، وعمل الجنود في حياتهم العادية اليومية، ولا يدخر وسعا في تشجيع كل بادرة شخصية، وكل خطوة مبتكرة، في سبيل بعث النشاط في الجنود، وإنهاض الهمم، ومضاعفة الجهود، وكان يهتم بكل ما يتعلق بحياة الجندي، في شـــتى حالات قيامهم وقعودهم، فكانت تقاريره للمراجع العسكرية العليا تعج بالملاحظات عن حالة الثكنات والمباني، كما كتب يوما عن إحدى الثكنات يقول:

" لا تزال الثكنة على ما كانت عليه سابقا من سوء الحال، أما الجديد فيها ،فهو أن احد المطابخ فيها قد انهار.."

وأسس في عام 1904 مدرسة للخيالة في نترافون، وأصدر" مجلة الخيالة"

وقام في عام 1906 بجولة تفتيش في أفريقيا الجنوبية ،قادته فيها خطاه إلى مافكنج وغيرها من ميادين جهـــاده المجـــيد، وفي طريق عودته إلى إنكلترا مر بإفريقيا البرتغالية،وأفريقيا الألمانية الشرقية، وكندا، وأفريقيا البريطانية الشرقية، وزنجبار، توجه إلى عدن والبحر الأحمر لمصر حيث قام بتفتيش خيالتها

وفي عام 1907 أصدر كتابه:" صور ورسوم من مافكنج وأفريقيا الشرقية"

انـــه مجموعـــة طـــريفة من رسوم يده، نقل إليها بعض مشاهد الطبيعة والإنسان والحيوان في أجمل مظاهرها، فهناك الملاحظة الدقيقة، واللمحة الخاطفة، والتأثر العميق، والحركة، والسكنة، وكل ما ينم عن الحياة، مع شيء من المرح العابث، والسخرية الناعمة، والعطف والجنان

وان كتاب الرسوم هذا ليطلعنا أيضا على مدى ثقافته العامة، وشدة ميله إلى المعرفة، فلقد كان يدرس كل بلد يزوره، درس عيان واختبار، ثم درس كتب ومطالعة، بحيث يلم بماضيه وحاضره، واقتصادياته و امكاناتـــه، مااستطاع، حتى إذا كتب له احد الشبان يستشيره عن الطريق التي يسلك في المستقبل- وكانت مثل هذه الرسائل تنهال عليه من كل صوب – أجابه بما يعرف عن البلاد،موجها أنظاره إلى الأفاق البعيدة حاثا إياه على طلب الرزق هناك، حيث مجالات النشاط أوسع وسبل العيش أرحب

وصــــدرت له كتب غيره بعدها ..ذكر أسفاره العديدة وعلى صف البلاد التي أقام فيها وقتا بمهمة ما أوزارهـــا زيـــارة عابـــرة وهو في طريقه إلى غيرها، أنها كتب متنوعة تحمل كلها طابعه الخاص من الملاحظات الدقيقة ،والنظر البعيدة والإطلاع الواسع

وانتهت مهمته في منتصف 1907

واخـــذ يتساءل:" هل يترك الجيش ليقف نفسه على الحركة الكشفية التي بدأت تشغله؟ إلا انه لم يحن الأوان بعـــد لان يعـــتزل الخدمة تماما، فها رئيس الأركان يدعوه إلى تقلد مهمة الإشراف العام على التدريب الحربي لفرق جيش الدفاع الوطني

وقبل المهمة، اخذ يضطلع بها بما عرف به من إخلاص وهمة

ونشر أثناء ذلك كتابه الأشهر "الطلائع " ضمنه آراءه واختباراته عن حركة الطلائع التي خرجت من الجيش إلى العامة فأخذت طرقها تتوضح لديه، وأساليبها تنتظم، وفكرتها تنتشر، تروق الشبيبة، وتعزو عالمها عزوا

ولمـــا اســـتدعاه الملك ادوار ليقلده صليب فكتوري ،إقرارا بتحميله في إنشاء حركة الطلائع، جرى الحديـــث بينهما عن مستقبل هذه الحركة فأشار عليه الملك بان يقف كل أوقاته على تنظيم حركة الكشـــفية ونشـــرها بين الشبيبة، وهكذا قدم بادن باول استقالته من وظيفته في الجيش ،في 31 يار 1910 فكتب إليه القائد العام معلقا على كتاب استقالته:

" لقد خسرك الجيش لكن ليس من خدمة تستطيع أن تقدمها للبلاد اجل من الكشفية"

وأجاب بادن باول بكلمة رائعة هي برنامج حياته، وعنوان مجده:

" لم اخلـــق لأكون قائدا فلقد كان أحب إلي أن أكون ضابطا بسيطا في فوج، أعيش فيه مع الرجال على اتصال شخصي دائم"

لقد شق عليه أن يعتزل الخدمة في الجيش إلا انه لم ينفصل عنه كليا، إذ عين قائد شرف للفوج الثالث عشر للخيالة، وكان قائدا الفوج أثناء الحرب الكبرى، على اتصال به دائم، يطلعه برسائل طويلة على أخبار الفوج وأعماله، وكانت زياراته له في الجبهة متواصلة تلقى كل سرور وترحيب

القسم الثاني

بادن باول الكشاف

عهد الانطلاق

لقد قسمنا تاريخ بادن باول في سيرة حياته هذه إلى قسمين: الجندية والكشاف

هل يا ترى انقسمت حياته حقا إلى مثل هذين القسمين، بحيث انه اعتنق الجندية أولا، سالكا طريقها بخطى الجندي المقدام، لا يلوي على شيء ،حتى إذا بلغ من طريقه نقطة تحول، طلق الجندية فجأة موليا لها الأدبار، واخذ يسلك سبيلا أخر، سبيل الكشفية؟ فبدأ جديا وانتهى كشاف ،كمن خلع ثوبا وارتدى غريه ؟

هل هناك من فاصل بين القسمين يبلغ مبلغ الهوة عمقا يباعد فيها بين الضفتين، حتى لينقطع من الواحدة إلى الأخرى كل سبيل؟

هل هناك ثورة على الماضي، وانقلاب بالمعنى الذي يعرف كما حدث للكثيرين غيره، وكما حدث مثلا لشارل دو فوكو،الذي انقلب من جندي ورائد إلى ناسك في الصحراء متعبد ، في تحول تام أنكر فيه كل ماضيه وطوى صفحته إلى الأبد؟

كلا، إن بادن باول جندي ..

الحالتين ،انه جندي وكشاف ،معا ودائما لقد كانت حياته فريدة في سياقها ،في تماسك أجزائها ،في وحدتها.

ليس هناك من طفرات، وانقلابات ،وثورات، وتحولات، لقد سارت حياته سيرها الطبيعي، ترفعه الدرجة منها إلى ما فوقها من درجات السلم، في صعود أمين مطرد، في تطور صحيح سليم

هي الجندية أعدته للكشفية ، وقادت خطاه إليها، وارتقت به في مراقيها، فاخذ من الجندية روحها الخالدة ونفخها في الكشفية نفخة صحة وحياة

أتت الكشفية إذا استكمالا للجندية ، وتوسيعا في معناها، واستغلالا لصفاتها، وارتقاء بأساليبها، على نطاق شمل الكبير والصغير والشاب والطفل والفتى والفتاة

ولاشك أن القارئ قد فهم الفصول السابقة على هذا بمعنى، وعلى هذه الصورة فلقد كانت حياته فيها أسيرا إلى الأمام، وارتقاء إلى الأعالي وتمهيدا لفتح لرائع، فتح الكشفية العالمية

إنها سلسلة متصلة الحلقات قادته أخيرا إلى الكشفية كما يعرفها اليوم ونشهدها

لم تكن الكشفية لتنتشر هذا الانتشار ،وبهذه السرعة، لو لم تلقى هوى في نفس بادن باول وهوى في نفوس الأحداث، فلقد كان بادن باول يعرف الشبيبة، ويفهمها ويحبها وقد وجد السبيل إلى نفسها كما كانت الشبيبة تعرفه، وتحبه وقد وجد السبيل هي أيضا إلى قلبه فكان الحب بينه وبينها متبادل، والتفاهم تام، والتجارب كامل، وعلى نطاق واسع

جل ما يريده الشباب أن ينظر الكبار إليهم نظرهم إلى كبير راشد ،لا إلى طفل قاصر فان بادن باول بأساليبه متمما لرغباهم، متفهما لعقلياهم، مستثمرا لقواهم ، يدرهم بها على حياة الرجال

وفي ذات يوم من عام 1903 دقت الساعة الحاسمة في حياة بادن باول ، وفي حياة الكشفية ،إذ دعاه وليم سميث، مؤسس" كتائب الفتيان" ليستعرض فرقها في حفلة عامة

ولنترك الكلام هنا لبادن باول:

" كانوا ثمانية آلاف فتى، يالمنظر هؤلاء الفتيان يسيرون في وحدات متراصة ، بخطى ثابتة، ونظام رائع والتفت إلى وليم سميث وقتل له :

كم أود أن أحذو حذوك وأقوم مقامك لدى مثل هؤلاء الفتيان

وأضفت قائلا:

لــو تضـــاعفت الجهود في هذا السبيل وتنوعت الأساليب والتدريبات إذا لتضاعف عددهم عشرات المرات

فأجابني:

هلا صدرت لكتابك " في سبيل الطلائع صبغة خاصة بالفتيان؟"

نعم الفكرة

وأصدرت الصبغة المطلوبة، وتداولتها الأيدي، وتداولتها أيدي "كتائب الفتيان" وغيرهم عدوا بالمئات والألوف ونشأت الحركة قوية جارفة واتسع نطاقها ،وأقمنا للحركة إدارة، وفتحنا لها مكتبا، وسعينا لها بمدربين، و لم تمض سنوات قلائل حتى أقمنا أول " رالي" في كلاسكوف، دعونا إليه وليم سميث لم يكونوا يومئذ أكثر من عددا من " كتاب الفتيان" كما أهم لم يكونوا اقل تنظيما ،وأدنى حماسة وجمعـــت رؤســـاء الفصائل لا تحدث إليهم على حدة، ما أجملها شبيبة، والتفت إلي وليم سميث وقد دمعت عيناه تأثرا ،وقال:

دونك مكاني لدى فتيان "الكتائب" هلا قبلت؟

قـــد قالها صادقا، في عزم واقتناع، انه يعرف الشبيبة حق المعرفة، ويعرف حاجاها وأدواءها، ويعرف الطـــرق إليها، ولقد راقه ما قام على يديه من حركة مباركة ، وما بلغت إليه الحركة من نجاح ،ولم يغـــرب عـــنه ا كلينا نسير إلى هدف واحد من خدمة الشبيبة، وان في سبيل مختلفة إلا انه أبدى من التراهـــة والتجرد ومن سعة الصدر، وسماحة خلق ما يجعل الحركتين تسيرين سيرهما وتمشيان جنبا إلى جنب دون احتكاك ونزاع وفي تحاب وتفاهم

كانـــت فكـــرة تطبيق أساليب الاستطلاع، التي في الجندية على الكشفية وعلى الشبيبة في الكشفية، لترويضها وتثقيفها وتربيتها فكرة خصبة، اخذ بادن باول يعمل فيها الذهن، ويقلبها في كل وجه،في

اجـــتهاد واســـع من تنقيح ولتطوير والتوضيح وتنظيم ولصقل واجلاء ، حتى جاءت موافية لشروط سهلة المتناول قريبة التحقيق وافرة الثمار

إليك خطوط الكشفية الرئيسية كما عرضها بادن باول على وليم سميث عام 1906:

الغاية من الكشفية إخراج مواطنين صالحين:

والمواطن الصالح يتصف بروح التضحية ،ويخضع للواجب، ويفكر تفكيرا شخصيا صحيحا يبنيه على الواقـــع، ويضطلع بالمسؤوليات دون وجل، ويحسن أعماله حتى أصغرها شأنا ، وله من دقة الملاحظة وســـداد الـــنظرة، وبعد الأفاق ما يؤهله للسيطرة على الظروف والتغلب على الصعاب والخروج من المأزق

أمـــا الوسائل لتنمية هذه الصيفات ، والتطبع بهذه الطباع، فعديدة وأكثرها، عملي، تأتي لي مجالات اللعب، والحكايات، والترهات والرحلات ، والاختبارات، والمسابقات، في ميدانها من السهل والجبل والغابـــة، والنـــبات والحيوان والإنسان فهي نظرة شاملة تحيط بالكون وما فيه هو الإنسان كله، في ميدان الحياة كلها والبرنامج العملي لذلك أوسع من أن نستوعبه هنا بتفاصيله

فهـــذه مـــثلا حكايـــة يرويها رئيس الكشفية، ينسج خيوطها من حوادث تستهوي الأطفال، وتثير حماســـتهم يبعـــثهم بعدها في تمارين عملية في اثر المجرمين الهاربين، يبحثون عنهم، ويتعقبون أثارهم، ويكتشـــفون أمـــرهم، أنها ولاشك حكاية خيالية لكنها تستمد على الواقع اليومي فتنمي الملاحظة، وتشغل البال وتبعث التفكير وتفتق الحيلة فيتعرفون على الادلة ويتعلمون تأويلها ، ويتفهمون معانيها فلا تفوقم من تلك

الأدلة والآثار فائتة ،ولا يتركون كبرة أو صغيرة إلا ويعيروها أهميتها، ويحسبون حسابها

وهذه مثلا بعض التمارين من تلك التي تروض الحواس وتنمي الملاحظة ،وتدعو إلى التفكير

انظر إلى واجهة مخزن مدة دقيقة واحدة، ثم حول نظرك عنها، وعدد ما رايته فيها من معروضات

لاحـــظ بعض المارة في الطريق، ثم حاول أن تتعرف من مظهرهم إلى ما خفي عنك من مخبرهم، من المهنة، والطباع والأخلاق والسن

تعلم أن تتجه بواسطة الشمس، والقمر، والنجوم، والهواء

ادرس الـــبرية، أو الحديقـــة، وحاول أن تتعرف على ما انطبع على أرضها من أثار الإنسان والحيوان والعجلات

حاول أن تشعل النار في البرية بعود واحد من الثقاب، أو اثنين رغم الهواء العاصف

تعلم أن تطبخ في البرية، وان تقيس الأبعاد بالنظر، وان تسبح في البحر والنهر، وان تخلص غريقا، وان تضع التقارير، وان تتخذ ما يجب من وسائل الصحة والنظافة

ارسم علم بلادك وتعلم معناه، ادرس تاريخ بلادك، ضع مصلحة الوطن فوق كل مصلحة، والواجب فوق كل هوى ابحث عن خدمة تؤديها ،ونصح تسديه، وعود تمد يدك فيه إلى حد

هـــذه وغيرهـــا من المواضيع لن يصعب على الرئيس إيجادها، واستنباطها ، لاسيما إذا توخى منها ما ينطـــبق عـــلى الزمان والمكان، إلا انه لا يألو جهدا في درس المواضيع الأساسية التي ذكرنا بعضها، والعـــودة إليها مع الكشافين في كل طرف، وفي كل سانحة، لتنطبع في نفس الكشاف، وتتحول إلى شخصية

هـــذه الآراء والخواطر،اخذ بادن باول يذيعها في نشرات يصدرها من وقت إلى أخر، حسب الحاجة قال في إحداها:

توضـــع هذه الطريقة في تربية الشبيبة لتزاحم طرقا غيرها، كما أنها لا تهدف إلى إنشاء منظمة جديدة تتـــنافس مع ما هو قائم من المنظمات بل لتدخل، روحا جديدة ، وأساليب جديدة في صلب كل تجمـــع للشـــبيبة من المدارس أو النوادي إلى كتاب الفتيان" إلى غيرها من الجمعيات تنعشها وتجددها وتحييها ..

واخذ بادن باول يبحث له عن معاونين في كل مكان وفي كل الطبقات

وقد بعث صديقه إليه يوما خير معاونيه في هذه الحركة

كـــان ذلك عام 1907 في بيت ريفي للسيد ارثور بير سون، صاحب دار للطباعة والنشر وهذا ما كتبه السيد ايفرث الناقد الأدبي لداره عما حدث يومئذ قال:

" قـــام بـــادن باول بضعة أيام من صيف 1907 ضيفا على بيرسون، في داره الريفية وكان يصرف يومئذ جل اهتمامه في البحث عن معاونين أكفاء يساعدونه على نشر الحركة بين صفوف الشبيبة

وفي ذات يـــوم، دعـــا صـــاحب الـــدار أصدقاء له إلى حفلة، وبينما كان ضيوفه يلهون فيما بينهم ويـــتحدثون انسل بيرسون من بينهم خلسة وهم بركوب عجلته للذهاب وإذا ببادن باول يقف أمامه في اللحظة الأخيرة

إلى أين ؟

إلى زيارة مأوى للأولاد من ذوي العاهات اهتم به

وذهبـــت العجلـــة، وظـــل بادن باول واقفا وحده مع أفكاره، وهي تدور في رأسه ضاجة تعمل فيه عملها، وإذا به يخرج من تأملاته بالنتيجة التالية: ياله من رجل انه ليحب الأولاد حبا جما وانه علاوة على ذلك رجل أداة وتنظيم، وصاحب دار للطباعة والنشر ومحرر جريدة انه لرجل الذي اقصد

وتباحث بادن باول مع بيرسون في موضوع الساعة، ودرس معه الوسائل وتم الاتفاق

وقال بيرسون من طرفه ،عن ذلك الاجتماع:

"إنهـــا الصـــدفة نادت احدنا إلى الأخر، لنساهم معا في عمل جليل كالكشفية واني لأذكر الآن بكل سرور تلك الصدفة التي جاءت بي إلى الحركة في أول عهدها، فكنت أول من وقف على طبع كتاب "الطلائع" وعلى إصدار مجلة "الكشاف"

وأراد بـــادن باول ،وهو على أبواب خطوة حاسمة في الكشفية ،أن يتوسع في موضوعه، فانكب على دراسة أساليب التربية المتبعة في مختلف بلدان العالم، فاقبس أشياء من بعض طقوس القبائل في أفريقيا، ومـــن دســـتور الفرســـان في القرون الوسطى ، ومن الحركة الرياضية الناشئة في ألمانيا، ومن بعض الدراسات النظرية، مما أغنى به طريقته، وساعده على توسيع نطاقها، وإدخالها إلى شتى نواحي الحياة

إلا انـــه أفاد من مخيم جزيرة برونسي ما لم يفده من كل ما سواه، فلقد طبق هناك لأول مرة أساليبه مـــع فـــرقة مـــن الشبان أتوا من مختلف المنظمات، ومن " كتائب الفتيان" ومن غيرها من الجمعيات الموجودة

قام هذا المخيم ،الذي هم المخيم الاول للكشفية ، من 15 حزيران إلى 09 آب من عام 1907 في جزيـــرة كـــثيرة الغابـــات، في موقع أعده رؤساء "الكتائب" وزودوه بما يلزم وقد ساهم فيه أركان الكشفية يومئذ وعلى رأسهم بادن باول

أتت التجربة الأولى ناجحة كل النجاح، وهاك ما كتبه عنها بادن باول يقول:

" قســـمنا المخـــيمين إلى فصائل من خمسة أفراد وتسلم القيادة في كل فصيلة منها أكبرها سنا، تحمل وحـــده فـــيها المســـؤولية التامة، فكان هذا النظام من أهم أسباب النجاح وكانت الفصيلة، الوحدة المســـتقلة تخيم وحدها وتعمل وحدها وتنظم شؤونها وحدها، وتدين بالطاعة لرئيسها متقيدة في كل أعمالها ..

على أربابها ، ويبعث روح التنافس المجدي بين أعضائها يدعوهم إلى التسابق في مضمار الأعمال

وســـارت الأمـــور على هذا المنوال، يرتقي مستواها من يوم إلى يوم يندرج بها الكشافون في طرق الكشفية ويتمرسون في أساليبها

وكان لكل فصيلة يومها من الخدمة، تقوم فيه بإعداد الطعام، وتتولى تنفيذ الأوامر في الشؤون العامة، وتتكلف مهام الحراسة في الليل والنهار

وفي المســـاء كنت ترى كل فرد من فصيلة خدمة قد ارتدى رداءه والتحف بأغطيته ، وحمل صحنه وكـــبريته، وذهـــب إلى المكان المعد للطبخ ، يشعل النار بأقل ما يمكن من عود الثقاب، وبعد العشاء بينما كل فصيلة تهيئ مرقدها، يأخذ لحراس مكانهم لحراسة الليل

ولقد دلنا الاختبار على أن أفيد الشروح عن موضوع، اقلها كلاما وأكثرها أمثلة فنجلس حول النار نخـــوض شتى المواضيع ونثرثر في اقر بها، حتى إذا تم لنا فهم موضوع الساعة، نقوم له في اليوم التالي

نجـــري فيه بعض التطبيقات العملية، في مباراة تشترك فيها الفصائل كلها وقد علمنا الاختبار انه ليس مثل القراءت الطويلة السهلة مجلبة للضجر ومدعاة للفتور

والـــيك بعض ما تطرق من مواضيع نستهدف إلى تنمية الملاحظة وتقوية الانتباه وهذا مثلا موضوع "الأثر"

اجتمعنا بعد العشاء ودائرة متراصة حول نار ، اخذ الرئيس يسرد على المسامع حكاية شيقة، أراد أن يظهر بها ما نجنيه من فائدة من معرفة الأثر ،والتحقق منه وتعقبه

وفي الـــيوم التالي نجري أمامهم بعض التجارب من أثار للأقدام، لأقدام الإنسان والحيوان نطبعها على الحضيض هنا وهناك، ندربهم على التعرف عليها والتفهم لمدلولها

وبعـــد الظهـــر مـــن اليوم ذاته نقوم بلعبة نسميها بلعبة (الغزال الشارد) فنطلق احدهم ..وقد لقبناه بالغـــزال وقد زودناه في جعبته بست كرات من كرات التنس، فيبتعد عدوا وقفز ولا يلبث أن يغيب عـــن الأنظار وبعد عشرين دقيقة من انطلاقه، أرسل في إثره أربعة من الكشافين لمطاردته، وقد تزود كـــل منهم بكرة واحدة، ويبدأ الكر والفر والمطاردة ولنزال وكان الغزال بعد أن سار مسافة كيلومتر وحـــداو اثنين، يتعرج في طريقه، فيختبئ هنا ويظهر هناك نصب استطرد به الفخاخ، مشوشا عليهم أثـــاره ، مظلـــلا إياهم ما استطاع حتى لم ينفرد بأحدهم رماه بكرة فأراه قتيلا، ولحق به المطاردون، فاحاطوبه وأطلقوا عليه نيرانهم، وقت والمطارد يقتل بإصابة واحدة من الغزال والغزال يقتل بإصابات ثلاث من مطارديه

على هذا الصورة كانت أساليب الكشفية تطبق في المخيم فيصير ولا تنقيهم ثم درسها ثم العمل بها

وكـــان النظام سائدا والقوانين مراعية بحيث أن محكمة الشرف التي تكونت للنظر في أمر من يخالفها ....

لأجله، ولاغرو فلقد قطع الكشاف على نفسه عهدا بان يأتي أعماله على أحسن ما يستطيع

وكان اكبر الفصيلة سنا يضطلع بمهام الرئاسة، ويتحمل المسؤولية عن سير فصيلته "

وكـــان لـــنار المخيم سحرها على الكشافين وأنهم ليرونها للمرة الأولى وهذا ما كتبه أحد من شهد المخيم، عن بادن باول قال:

"إني لا رآه إلى الآن أمـــام النار تعكس على وجهه أنوارها ، وقد انتصب بقامته الدقيقة الناعمة، طيفا من نور، رؤيا من الأساطير، يشع سرورا وحبا بالحياة، يتنقل دون جهد من المرح إلى الجد، يستجيب لكـــل طلب ، ويتجاوب مع كل حالة ، يقلد تارة أصوات العصافير، وأخرى صرخات الحيوانات، يعـــلم تارة كيف تقتفي الآثار ويسرد تارة أخرى نكتة حضرته، أو حكاية قام على الفور بنسجها ثم يـــرقص ويغني ويدور حول النار ويضع هنا إرشادا في كلمات، وهناك نصيحة في نظرات، يوجه أبناء

تعليما دقيقا وأنا نقدا لطيفا مما كان يقع على الجميع لحسن وقع حتى ليسيرون وراءه إلى أقاصي الأرض

كان النجاح إذا حليف المخيم في كل أطواره بحيث أن بادن باول خرج منه ارسخ عقيدة بضرورة حركته، واشد عزيمة على متابعة الجهود في سبيلها

ورأي أن أول ما تدعوا الحاجة إليه الآن كتاب يكون بمثابة الدليل والمرشد في مضمار الكشفية فاخذ يعد له العدة بهمته المعهودة، وقدم السيد بيرسون أثناء ذلك مكتبا أقامت الحركة فيه إدارتها المركزية كما تبرع بتكاليفها كلها للسنة الأولى ووعد بإصدار نشرة أسبوعية باسم الكشاف بينما اخذ بادن باول يلقي هنا وهناك المحاضرات يشرح فيها حركته للجمهور

وظهر الكتاب،على مراحل ستة متوالية، في أجزاء ستة، بعنوان " الطلائع" بيع الجزء منها بثمن زهيد، وكان حسب الكتاب من اسم مؤلفه داعيا للانتشار السريع الجارف، فتلقفته أيدي الشبيبة في كل أطراف العالم، بما لم تتلقف به كتابا ،من الحماسة واخذ الأحداث يمارسون تمارينه، ويلعبون ألعابه، ويتجمعون ،من تلقاء أنفسهم فصائل وفرقا، يضعون على راس الواحدة منها احدهم سائلين كل من توسموا فيه الكفاءة بان يقود فرقة منها

وظهر العدد الأول من مجلة "الكشاف" في 14 نيسان 1908 وان ما حدث يوما لأحدهم لدليل على ما قد حدث من أمثاله للكثيرين،قال:

"أراني يوما احد معلمي المدارس كتابا بعنوان "الطلائع" وطلب مني أن اقرأه وان أدلي إليه برأي فيه، فأخذته على كره، وتصفحته تصفحا سريعا، ثم ألقيت به على زاوية من منضدتي، و لم البث أن نسيت مرة إلى أن وقع عليه نظري ذات يوم غائم ممطر فأخذته واعدت قراءته بانتباه ولما ذهبت به إلى صاحبي بادرني بقوله:

أو ق... فصيلة من الطلائع ؟

فأجبته على الفور ، وربما دون ترو:

لقد قبلت

قبلت وان لا ادري ما تخبئه لي الأيام، ولا ادري أن الحركة سوف تأخذ مني وقتي وقلبي وأنها سوف تقلب حياتي رأسا على عقب

وقبلت إذا وأنا أتخيل نفسي يومذاك في مرتبة قائد له تحت إمرته مرؤوسون يتخلف إليهم من وقت إلى أخر وربما في كل شهر ، يأتيهم والابتسامة على ثغره، فيقول لهذا كلمة تشجيع وتحميس وللأخر كلمة عطف وشفقة ثم يذهب ،وحسبه ما فعل..

هذا ما تخيلته يومئذ

وإذا بي أجـــد نفســـي ذات مساء محرق من شهر أب أمام الحقيقة في غرفة وطئة تحت المطبخ وحولي ثمانية من الأحداث مع رئيسهم يتمرسون في عقدة المبتدئ ..

وكــان هـــذا النشـــاط صداه البعيد في منظمات الشبيبة وقد انجرفت مع غيرها لتيار الحماسة تتجند للفكـــرة الجديدة، تجري ما ابتكرت من عشرات وتعتنق ما علمت من مبادئ وقد فام ..باول يومئذ اتصـــالات عديـــدة مع رؤسائها يشرح ويوضح ..تطوى عليه ..سوية في التربية من عناصر تقدمية انسجمت فيها كل ما كان صالحا في غيرها من مختلف أساليب التربية

ولقـــد مـــر القول بان بادن باول لم يكن يومئذ ليفكر بإنشاء منظمة جديدة، بل بإنعاش ما قام من المنظمات بأسلوب من التربية جديد

وهو لم ينشئ حركته دارة مركزية مستقلة لا عندما دعت الحاجة إليها ،وقد طلبتها المنظمات القائمة ذاتها جمعا للشتات وتنسيقا للجود

إنمـــا هي الفكرة ذاتها أخذت تحيا وتنموا وتتحقق أعمالا وفرقا وشعبا وها هي نشرة الإدارة المركزية قـــد صـــدر العدد الأول منها في تموز 1909 وفيه من الأرقام ما يدل على مدى التقدم، وفيه أيضا لائحة طويلة بأسماء المدربين المسؤولين ، وقد بلغ عددهم يومئذ الأربعمائة والعشرين

وقـــد قضـــى بادن باول عطلته في تلك الصيف في أمريكا، متجولا بين أقطارها ،داعيا في محاضراته العديدة إلى اعتناق فكرة الكشفية بالسير على أساليبها

وأقـــيم "الـــرالي" الأول في أيلول 1909 ضم عشرات ألاف كشاف وقد ظهر فيه لأول مرة ظهور رمزيا، فرق من مرشدات قد نشأن نشأة عفوية فاتين إلى "الرالي" يعمل على ضرورة الاهتمام بتنظيم فرق المرشدات ينضممن مثل أخوتهن إلى الحركة

وأخذت لحركة على اثر هذه النشاط الواسع، تسير في طريق مركزية في مقر خاص تنتهي يوم مجلسا أعلى الشورى وتنتمي إليها لجانا إقليمية موزعة في كل إنكلترا، وفي أقطار عديدة من العالم

أنها لخطوة حاسمة خطتها الحركة في سبيل التنظيم الأخير

إلا أن بـــادن باول قد بلغ هنا إلى مفترق طرق عليه أن يختار أحداها فيضحي في ما سواها ليسلكها وحدها إلى النهاية

الطلائع

انـــه ليستهوي الفتيان، هذا الكتاب الشائق ولقد استقبلوه استقبالهم لضالتهم المنشودة، فشغفوا به أيما شغف ، وتحمسوا له أيما تحمس، وراحوا يردون موارده، ويسلكون طرقه، ويمعنون فيه نهبا واقتباسا، لا يولـــون على شيء فلا مطولات علمية أو فلسفية يضيق الأولاد بها صدرا فيتجاوزونها ولا شروح نظرية مسهبة تجعل منه سفرا مدرسيا سئم الأولاد أمثاله، انه كتاب منهم واليهم

انـــه كـــتاب منهم لأنه حياتهم ذاتها يحيونها في بصيرة ووعي ، على مرأى منهم ومسمع ، في ميادين اللعب والجد، والفكر والعمل، إنهم هم ذاتهم أطفال هذه اللعبة ، وأبطال تلك الحكاية وفرسان ذلك القـــتال، وكـــل شـــيء فه لهم جديد وقديم معا: جديد جدة الحاضر وقديمه قدم الإنسان فكأنهم مع جديده في ألفة سنين وكأنهم مع أشخاصه في عشرة أعوام وكان عهدهم بجديدة قديم إذ يتعرفون إليه في أعماق كيانهم

وانـــه كتاب إليهم لأنه يسد فيهم حاجة حيوية، تشع له جوعا ويروي لهم عطشا، جوعا وعطشا إلى المـــنظور والملموس إلى الخيال والشعور إلى الجميل والرائع، إلى كل ما في الحياة من أشكال ومظاهر وصور فهو يتكلم إلى الولد عن كل شيء بلغته هي لغة الولد، فيتكلم إلى عقله يفتحه بما يطرقه به من أفكـــار خصبة وخواطر منيرة، ويتكلم إلى قلبه يحرك ساكنة ويثير أهواءه ويبعث رغباته لكي يشبعها مـــن كل ما هو إنساني ويتكلم إلى حواسه يغذيها أشغالا، وألعاب وصورا ، ومتعات، ولذائذ ينميها بها ويغنيها ويتكلم إلى نفسه يستجيب إلى نداء الأعالي الذي يتردد في جوانبها، فيسموا بها إلى أجواء صـــافية من التضحية ،والمحبة والإخاء يتكلم إليه كله، تلبي جسمه ونفسه ، إلى عقله وقلبه، إلى طفل اليوم، والى رجل الغد

للكتاب أجزاء ستة، صدر كل جزء ومنها على جدة ، في فترات قصيرة من الزمن ثم جمعت كلها في مجلد واحد لم يلبث أن بيع منه الآلاف من النسخات وترجم إلى أهم لغات العالم

يشتمل الجزء الأول على بعض إرشادات عامة للمعسكرات يشرح له فيها ما يقوم به كل من رئيس الفصـــيلة ،أو رئيس الطليعة ،من دور ثم يورد برامج كاملة لأربع من سهرات نار المخيم، هذه بعض موضيعها :

- يـــبدأ برنامج السهرة الأولى بحديث عن فتيان مافكنج يمهد به للكلام في الكشفية فيحددها بأنها استعداد وخدمة لخدمة الجماعة وينتهي القصة "كيم" للكاتب كيلنغ
- ويبدأ برنامج السهرة الثانية بقوله " على من يريد من الفتيان أن يكون كشافا، أن ينضم إلى فصيلة من الفصائل التي تألفت في إحدى منظمات الشبيبة، أو أن يبحث له عن رفاق خمسة

ينضـــمون إليه، فيؤلف هو ذاته معهم فصيلة كشفية جديدة، ثم تأتي لعبة "كيم" تجري بعدها تمارين في إشعال النار، فيقول للمدرب ادع الكشافين ليشعل كل منهم ناره، على ما يرى، ثم قـــم بملاحظـــاتك، ترشدهم بها إلى الطريقة المثلى لإشعال النار وتنتهي السهرة بقصة فتى توصل بذكائه وحيلته إلى اكتشاف الجريمة

- وفي السهرة الثالثة يشرح مواد بعض الامتحانات ومدلول بعض الشارات
- وفي السهرة الرابعة يدور الكلام على دستور الكشاف يشرحه الشرح الشامل الوافي

وتشـــتمل الأجزاء الأربعة الأخرى من الكتاب على المواد التالية: الآثار وتعقبها، الإشارات وقراءتها، الـــزحف،الحـــيونات ،النبات، الاستكشاف،المخيم، المطبخ، حياة في العراء، لغة المورس والسيمافور، القـــوة البدنـــية ،العـــادات الصحية، الوقاية من الأمراض ، الفروسية ،النظام، الشخصية ،التمريض، بانتظار الطبيب، الوطنية

أمـــا الجـــزء السادس والأخير فيشتمل على مجموعة كبيرة من الألعاب والتمارين والرياضات، تجري كـــلها في العـــراء وهناك بعض الإرشادات للمدربين عن الأساليب التي يجب إتباعها في هذه الألعاب والتمارين لكي تسلك طريقها وتأتي بفائدتها

سر الكتاب إذا انه يشوق للأولاد أعمالا هم إليها بطبيعتهم ميالون، كإشعال النار والطبخ في العراء، والكر والفر ،والهرب والمطاردة، والاستكشاف والتحري، وتعقب الآثار، واستنباط الحيل، والألعاب التي تشبه المغامرات، مما يستنفر في المرء القوى الكامنة ويدعو إلى الثقة بالنفس وينمي الشخصية

بذلـــك ادخل بادن باول أهواء الفتى وأمياله وغرائزه ذاتها، كعناصر أساسية في صلب أسلوب للتربية شـــامل، فتطهرت فيه، و تسددت، أسامت، وانسجمت مع المبادئ القويمة، فتحولت هكذا من قوى سائمة عمياء إلى أسباب حياة الإنسانية مثلى

..بادن باول من خبير لنفس الطفل إذ يقول:

" إنـــنا نأخذ الولد لتربيته، وهو بعد في سن نصرة، تطير به الحماسة طيرانا إلى كل ما يطلب منه من جميل نبيل فيستمع منا إلى كل قول ، ويلبي منا كل نداء فتنمو شخصيته ويبلغ مبلغ الرجولة الكاملة"

يعـــد بادن باول الفصيلة أفضل ما ابتكر من أسلوبه: أنها حجر الزاوية عليه يقوم البناء وبه يتحقق ما تصبو إليه التربية الحقة من بناء للشخصية وتقوية الشعور بالمسؤولية، ورأيه في ذلك صريح

يقول:" من المربين والمدربين من لم يفهموا بادئ ذي بدء فكرة الفصيلة وما تنطوي عليه نظامها من فوائـــد إلا أنهم لم يلبثوا أن أدركوا حقيقتها ووقفوا على فوائدها الجمة، ومزيتها الكبرى أنها تجاري طبيعة الولد ،وتساير ميله إلى التكتل والتجمع ، فهو ما ينشط للعب، أو لمغامرة، أو للعبث، حتى تراه قـــد تقســـم وتوزع فرقا، وشرذمات ،وعصابات نشأت على حين غرة ،نهض الأقوى بقيادتها، فإذا أحســـنت فهم نظام الفصيلة ، وألقيت بمقاليد المسؤوليات فيها على رئيسها ،فانك لا تلبث أن تجني

ثمارهـــا وافرة ،أما إذا أبقيت في يديك الزمام، وحرصت كل الحرص على القيادة، لا يشاركك فيها من الفصيلة مشارك، فانك لا تلبث أن تبوء بالفشل"

هـــذه الأقـــوال وأمـــثالها عن نظام الكشفية علينا أن نحسن فهمها فإننا إذ نلقي على الفتى مسؤولية فصـــيلته، إنمـــا نوليه ثقتنا، إلا أننا بذلك لا نتركه وشأنه يسير على هواه، دون دليل ورادع فله من شريعة الكشاف بنوع خاص ، أفضل دليل واكبر رادع

ودستور الكشاف هذا لا يضع في وجهه الحدود والسدود، ولا يأتيه بالنواهي والزواجر لا يقبل له :" لا تفعل كذا ولا تأت بكذا ....

" هذا الدستور بتعلمه الكشاف ليس على صورة سلسلة من النواهي، بل على شكل نصائح ودوافع وتحريضـــات، وواجـــبات يجـــد لهـــا في طبيعته تجاوبا هو أقوى ما يرتكز عليه هذا الدستور ليكون للكشاف الدليل الهادي المطاع ، لقد خلا الدستور إذا من كل نهي، حتى من النهي عن السكرات يجـــد فيه كل شر ،فلطالما كان للفتى داعيا للعصيان والمخالفة ،وان بادن باول ليذكر ،في هذا الصدد، ما خبر عن معاقرة بنت ألحان، فقال:

" لقـــد خـــبرت عواقب إدمان الكحول، فشهدت بدايته وشهدت نهايته، وشهدت إفلاس أساليب الزجـــر والـــنهي فـــيه، لقد أتت هذه الأساليب من خارج الإنسان، لا حول لها عليه ولا قوة بينما الإنســـان لا يرتدع إلا برادع من نفسه، فهي قوة الإرادة تنبع من باطنه ،تستطيع أن تشفيه من دائه، أما الروادع الخارجية فما كانت أكثر الأحيان إلا لتزيد الطين بلة، ولا يستأصل شرا بخير يقوم مقامه، ولـــيس بـــأنجح في معالجة داوء لنفس من الوسائل التي تأتي بها الكشفية، من تقوية الإرادة، واحترام الذات، ولسيطرة على الأهواء وليس بأفضل للإقلاع عن عادات سيئة، من تأتي بعادات حسنة تأخذ مكانها"

وهذا دستور الكشاف كما ورد في النص الإنكليزي الأصلي، إلا أن بعض البلدان قد أحدثت فيه من التحوير والتعديل ما لا يمس بجوهر وما أريد به تطبيقه على بعض ظروف المكان والزمان:

1. شرف الكشاف جدير بان يعتمد عليه
2. الكشاف مخلص لمليكه وضابطه ولواديه، ولبلاده ولرؤسائه ومرؤوسيه
3. على الكشاف أن يسعى بالخير إلى قريبه وان يمد إليه يد المعونة،
4. الكشاف صديق للجميع وأخ لكل كشاف مهما كانت الطبقة التي ينتمي إليها
5. الكشاف ذو نبل وشهامة
6. الكشاف صديق للحيوانات
7. الكشاف يطبع أوامر والديه ورئيس فصيلته دون تردد
8. الكشاف يبتسم أمام الصعوبات

9. الكشاف متقتصد

10. الكشاف نظيف الأفكار والأقوال والأعمال

واليك الوعد الذي يقطعه الكشاف على نفسه عندما ينخرط في سلك الكشفية:

" اعد بشرفي أن اعمل بأحسن ما أستطيع، واجبي نحو الله والملك وان أساعد القريب في كل فرصة "

واليك الآن ما يقوله بادن باول عن هذا الوعد:

" أشبه ما تثيره في نفس الفتى من روعة تأخذ بمجامع القلب، فينطلق وعده وهو صادق كل الصدق ، جاد كل الجد، مصمم النية على البر به ما استطاع لكن الفتى ينسى ومن الطبيعي أن ينسى وان تزول من نفسه مع الزمن ،هذه التأثيرات القوية، فلا يجب أن يترك، بعد الوعد وشأنه ولا يجب أن نتساهل معــه في أمر معرفة الدستور، وحفظه، وتنفيذه، أما الآفة الكبرى التي تترصده، فان لا يعود يذكر من الوعد والدستور إلا الحرف دون الروح والمعنى"

أما إذا فقه معنى الشرف، وتدرب على العمل بموجبه، فعلى الرئيس أن يوليه عندئذ ثقته التامة، مظهرا لــه بذلــك انه يترله مترلة الرجل المسؤول، وان ينيط به بعض المهام، دون أن يظهر له انه يشك في مقدرتــه، وانه يوجس منه خوفا، ودون أن يقف له بالمرصاد، يرقب كل حركاته وسكناته، فليتركه يعمل على ما يبدو له: ملقيا عليه مسؤولية عمله ففي المسؤولية سر النجاح وليس مثل الفصيلة ميدانا للتمرس في المسؤولية والاضطلاع بأعبائها وان الرئيس فيها إذا ما تركت له فيها حرية العمل ،ليتقدم في طرق النمو والرجولة، كما لا يتقدم قط في مدرسته

أمــا أكثر ما يستهوي الفتى في الكشفية فهو الحياة في العراء، والمخيمات، وأنها أيضا لظاهرة جديدة ســبق بــادن بــاول إليها عصره، وأقامها، على أسس من الشائق والمفيد معا، وليس كل من خيم بالكشــاف، كما وليس كل من مخيم بمخيم كشاف فهناك أصول يجب أن إتباعها في الميخمات لتأتي بما ينبغي منها من خير ولنا في الإرشاد التالي الذي وجهه بادن باول إلى المدربين عام 1910 ما يفي بالمقصود قال:

"نحن الآن في فصل المخيمات، فهي قائمة على قدم وساق، واني لا انتهزها فرصة لأقول لكم رأيي في بعضها، فلقد شهدت منها ما لم يرقني سيره ،لأنه لم يأت على أساس صالح، واني لا نصح كثيرا بالا يتســع المخــيم الواحد لأكثر من ست فصائل، وليكن لكل فصيلة خيمتها الخاصة، ومكانها المحدد، وعتادها التام، فيشعر الكشافون عندئذ أنهم ليسوا أرقاما ونكرات في قطيع من الغنم، بل أشخاصا هم أعضاء حية فصيلة مستقلة تحمل تبعاتها ومسؤولياتها، فالمخيم الكبير لا يأتي بعمل كشفي وهو لا يقوم إلا بعــد تهيئة هي إلى التهيئة العسكرية اقرب، ولقد زرت منذ قليل احد هذه المخيمات الكبيرة، فلم استحسنه، على ما كان عليه مع ذلك من نظام تام، لأنه كان أشبه بثكنة عسكرية منه بمخيم كشفي،

فــلم تراع فيه الأصول الكشفية، وقد تفككت فيه وحدة الفصيلة، - مع أنها الأساس- ليحل محلها نظام تمليه الأماكن والخيام، فالفصيلة وحدة لا تتجزأ ولا تمس مهما كانت الضروف

أما إذا جاء إلى المخيم أكثر من ست أو سبع فصائل ،فلنقسم، الفصائل إلى مخيمين اثنين، يبعد الواحد عن الأخر مسافة لا تقل عن كيلومترات ثلاث

وللكشــفية كمــا لكل منظمة، شاراتها وقام بادن باول بوضعها، وقد خبر بعضها في الجندية وهي تنقســم إلى شــارات عامة تكفي كل نشاط كشفي، كشارات الدرجتين الأولى والثانية، وشارات خاصــة تغطي للكفاءات وحدها، وهي عديدة تشمل كل نواحي المعرفة الإنسانية ، بحيث يجد كل ذي همة ورغبة، ما يلائمه منها، وما هو في متناوله، وكان لهذه الكفاءات محبذها وناقدوها فهب بادن باول يدافع عنها ويشرح غايتها قائلا:

" لا غاية لنا من نظام الكفاءات إلا الاهابة بالفتيان ولاسيما من كانت معارفهم المدرسية محدودة التي تــدرس بعــض المواضيع الشيقة المفيدة، في جو من الحماسة والتنافس، لذلك يسلكون طريق لمعرفة، تقودهــم في مراقبها دون أن يدروا على شرط أن لا يتخذ ذلك النشاط شكلا مدرسيا، فإننا عندئذ نتغذى على المدرسة دون أن نكون قادرين على مجاراتها في ميدان هو ميدانها "

وللكشفية أيضا، كما لكل منظمة هامة لباسها الخاص ، وضعه لها بادن باول ذاته وقد شرح رأيه في الموضوع بما يلي:

لقــد مست الحاجة إلى لباس يرتديه الكشاف أثناء نشاطه الكشفي، يكون صحيا، ورخيصا، وسهلا و إلى أن اهتديــت إلى الزي الملائم وقد خبرت مزاياه مع شرطة أفريقيا الجنوبية فكان خير لباس لا اقصد دون أن يكون مع ذلك نسخة سترة العسكرية

هــذه لمحة عن كتاب "الطلائع" عقد دخل على الكشفية، فيما بعد تحويرات أملتها مقتضيات الزمان والمكــان، إلا أن جوهــر الكشفية ظل هو كما وضعه كتاب"الطلائع" وانه لا يزال الدستور الذي تتمشى عليه الكشفية العالمية

عهد التنظيم

مــا كل حركة تنتشر سريعا بالحركة التي تثبت طويلا فقد تكون كنار الهشيم، تشتعل سريعا ذاهبة بالســنتها الصافية إلى عنان السماء، وتنطفئ سريعا مخلفة وراءها البرد والظلمة، بعد ما نشرت فيما حولها النار والنور

أمــا الكشــفية فقــد انتشرت سريعا كما لم تنتشر حركة مثلها، إلا أن انتشارها لم يكن من عمل الظــروف ولا من عمل الحماسة ولا من عمل الهوس، مما لا يثبت معه أمر طويلا، لم يكن انتشارها مصــطنعا زائفــا غاشــا، خدعة من خدع الأيام، كالموجة الطاغية الجارفة لا تلبث أن تنكسر على الصخرة وتنحسر

كــان انتشــار الكشــفية ظاهرة من النمو الطبيعي كغرسة فنية قوية في تربة صالحة، تتدفق أغصانها وأوراقها وثمارا في حيوية دافقة

وليس بادل على هذه الحيوية من التنظيم الذي سير النمو، وسهر عليه، ووفر له أسباب الصحة،وليس بــادل على هذه الحيوية من أن التنظيم لم يقتل الشخصية، كما قد يخشى في البنية الضعيفة، بل أنماها وهداهــا الســبيل ،ووقاها العثرات لأنه قام على مبدأ الحرية وفترك المجال للشخصية تسعى سعيها، وتــنمو نموهــا ،في ميدانه، وترك الحرية للنشاط الشخصي يبتكر ابتكاراته، وينفتق حيلا، وأساليب ونظرات ،وتجارب

بــدأ بــادن باول بتنظيم حركته منذ عام 1909 ،إذ كان بعد في الجيش، إلا انه لم يخلق لها نظامها النهائي الذي تتمشى عليه إلى اليوم إلا في السنة التالية، حينما اعتزل الخدمة في الجيش وتفرغ لشؤون الحركة متصرفا إليها بكليته فسار بها في سبيل التنظيم الإداري أشواطها الحاسمة

وجاء التنظيم الأخير في خطوطه الأساسية بعد شتى المحاولات والتجارب على الصورة التالية:

يقــوم عــلى الحــركة الكشــفية في مســتواها الأعلى، مجلس تنفيذي يرئسه بادن باول ،يضم من الشخصيات من أتوا في الرعيل الأول، فذهبت لهم في الكشفية شهرة، وكانت لهم فيها نضال ومات، أمــثال السر هربرت بلرمر والسر ادمون وسير ويرنت واولك ده بور وايفرث واللويس ثم ياتي دونه مجلس للمقاطعات ثم مجلس للمفوضين المحليين

ثم يــأت هــذا التنظيم قيد يكبل الحريات لان جلهم المنظمة أن ترك للإدارات المحلية ولرؤساء الفرق وللكشــافين أنفســهم أوســع مجالات، يكونون فيها أنشطة همة وأوسع حية ، وأطلق سرحا، لان الكشفية بدأت روحا وحركة قبل أن تكون مؤسسة ومنظمة وضلت روحا وحركة حتى دخل حدود

التنظـــيم، وفي نطاقه فلم تضع الإدارة يوما على الروح، و لم تخلق الممارسات المقررة المزايا الشخصية تتفق عن الابتكارات والحيل

أمـــا الطرق العسكرية المخطئة فلم يرد بادن باول رغم إلحاح بعض الضباط، أن يدخلها في الكشفية فلقــد تـــأكد له بعد خبرة أربع وثلاثين سنة أن ليس لها في الكشفية مثل مالها في الجندية من ضرورة ومن فائدة بل بالعكس فهي تميت الاجتهاد الذاتي وتقتل الشخصية وتطفئ جذوة الحماسة، فلا يكون الشاب له بها خلقا متينا، ورجولية حقة والفتى الذي شب عليها وحدها، لن يجد فيه ميلا إلى ممارسة غيرها من أنواع النشاط الحي، والغاية من الكشفية أن تقرب الفتى من الطبيعة لا أن تجعل منه نسخة من الجندي

وكمـــا حاذر بادن باول في حركته طرق الجندية وأساليبها حاذر أيضا طرق الرياضة وأساليبها، فقد أدرك بثاقب فكره أن الرئيس أو المتدرب في الكشفية ليس له من الاختصاص في الرياضة ومن التمرس في أســـاليبها ما يؤهله لان يقوم فيها معلما في فرقته، فهو يجهل منها أصولها، كما يجهل طبيعة جسم الفـــتى وقوانين نموه وقد يتهور بالفتى فيها، فيسبب له من الأضرار الجسمية من حيث لا يدري وقد حـــذر بـــادن بـــاول المدربين في الكشفية من التمادي في أعماله الرياضة البدنية، من سير شاق على الإقـــدام مدى ساعات ومن جولات بعيدة على الدرجات، ومن ألعاب طويلة عنيفة، مما لا قبل للفتى بمثله ، وحسبه من الرياضة البدنية ما سهل ونفع من خمس أو ست حركات بسيطة تمارس كل يوم، ومن ألعاب قد درست، بتفاصيلها تقوم بها الفرق في العراء ومن مخيمات توفرت فيها أسباب الصحة واختـــبر لها الأمكنة الملائمة، ومن سير معتدل، ومن تسلق الأشجار ، ومن سباحة محدودة إلى غيرها هنالك من ضروب الرياضة التي هي من وضع الطبيعة ووحيها وليس من وضع الإنسان ووحيه

لقد اختط بادن باول إذا لحركته طريقا جديدا خاصا بعيدا على السواء عن المنظمات العسكرية وعن المـــنظمات الرياضـــية فهي لا تمت إلى هذه أو إلى تلك، إلا بصلات عارضة ليست منها من الصميم والجوهر

ما كاد بادن باول يتم عمل التنظيم ، وينشئ الدوائر ويؤلف اللجان ، حتى فسح المجال للآلة الإدارية طـــرقة تعمـــل عمـــلها، لا يقحم نفسه كغيره من الرؤساء ، في الكبيرة والصغيرة ولا يحل قضية من القضـــايا الناشـــئة إلا بعـــد التنداول فيها مع ذوي الشأن ، حتى يضطلع كل فرد بمهامه، ويتحمل مسؤولياته، ويقوم بدوره

وكـــان عليه أن يزور مختلف الفرق الكشفية، بدعوة منها أو بدون دعوة، يتفقد شؤونها ويسهر على سيرها فكان دائما على الطرقات يتجشم إليها الأسفار ويقطع المسافات الطويلة جوالة لا تفتر له ولا يثنيه تعب

ولم تكن زياراته للفرق لتقتصر على الرسميات والحفلات، تلقى فيها الخطب، وترتفع الهتافات،وتستعرض الفضائل، لم يكن لبادن باول من مهرب من مثل هذه الرسميات تستقبل بها شخصية شعبية كشخصية إلا أنها كانت تنقلب معه دائما إلى زيارات إفادة ونفع وبناء من اتصال وتعارف تتوثق بهما، الروابط بين الرؤساء والمرؤسين ومن تفتيش دقيق شامل لا تفوته فيه فائتة ولا تخفى خافية، من حسنات وسيئات فيهي بالحسنات، من فكرة جديدة، أو عمل مبتكر، ومشروع طريف ويدل على السيئات ،مشيرا على مواطن الضعف والتقصير بيد رئيفة حليمة لا توجع بقدر ما تصلح وتوجه وتشجع

وقادته أسفاره إلى خارج بريطانيا، إلى حيث قامت فرقة من الكشفية على طريقته، وقد رأى في روسيا من سير بعض فرقها ما دعاه إلى التفكير الطويل والكتابة الطويلة أيضا، عن روح الكشفية وجوهرها

ولبث ما رأى في زيارته لفرقة من الفتيان مدرسة الأشراف في موسكوا :

أحاط بي موظفوا المدرسة ومعلموها يتحدثون معي في موضوع الكشفية وتابعنا الحديث ونحن على المائدة، وكانوا كلهم في زيهم الرسمية ، بالسيوف، والشارات، والأوسمة، واخذوا منذ أوائل العداء يملأون لضيوفهم كؤوس الشرب وكأنهم يريدون أن يطبحل برشدهم أنها ظاهرة مألوفة من الضيافة الروسية الكريمة

وتبع ذلك العرض العام، وكان على أحسن ما يرام من الدقة والتنظيم، لم تقع العين منه على هفوة أو شائنة وتبع زيارة المهاجع وعلى راس كل مهجع منها ضابط ،فكانت هي أيضا على أحسن ما يرام من الترتيب والنظافة ،وكان القانون سائدا بكل شدته وجبروته على كل مناحي الحياة في المدرسة، أما اللعب فلم يكن ليسمح له بوجود ولا المرح والعبث وغيرهما من أسباب الترفيه، وكان الخوف والطاعة أكثر ما يرد الكلام عليه في الإرشادات، ولا غروا فهما ركيزتا النظام السائد وعماده ومع ذلك فلقد شعرت أن هؤلاء الفتيان ليزخرون بقوى الشباب وبحماسة الشباب إنما ليس لهم من يطلقها من قيودها، ويرسلها في سبيلها من الحياة، أنها قوى كامنة مكبوتة، ليس لها إلى الخارج والى الحياة من منفذ انه نظام عسكري بحت ليس له من الكشفية الحقة إلا بعض الظواهر دون الروح أما الصورة التي أتمثل بها ذلك النظام فهي صورة راكب الدراجة البخارية، انه يحاول أن يسير بدراجته بواسطة الأرجل الخارجية وحدها، بينما القوى الكامنة في الآلة تستطيع، لو استعملها أن تسير بالدراجة من الداخل أحسن سير وبعده

وكان في المحطة فرقة من الكشافين الروس أتت لتودعني، لقد كانت وقفة دون حرك جامدة كالأصنام لكنني كنت اشعر باستعرضهم والحياة تزخر في النفوس تلمع في العيون، في النظرات، البراقة الملتهبة، ..حية ذلك المشهد كل تأثير حتى أني ما تممت من العودة على أعقابي ..وخذته

أصـــافحهم واحـــد واحدا، وما كدت ابلغ أخرهم حتى حماستهم في أصوت نطقت منهم فجأة من الصدور وبطرفة أحاط بي جميعهم من كل جانب واخذوا يزاحمون على مد يدي ولثم ثيابي، وامتدت الأيدي إلى الجيوب تخرج منها كل ما تعثر عليه، لتقدمه لي للذكرى، أنها حماسة الشباب طغت على كل الحدود وجرفت كل السدود، تستجيب للنداء، وان كان النداء أتاهم من غريب أجنبي،

أن الحـــادث لذو مغزى وإننا لمعرضون كثيرا لي مثله، ميالون إلى الأخذ بروحه فلنحاذر أن ننحو هذا الـــنحو في تربـــية الشبيبة ، أن نتزلق يفرقنا هذا الانزلاق إلى الجندية فالقانون الذي نكره على حفظه أكـــراها يحـــدث مـــن الانفجار مالا يحدث مثله القانون الذي نقبل عليه عن رضي والعبرة في ذلك أســـوقها فـــيما يلي:قائلا: ليس نظام الجندية بالوسيلة الفضلى لتكوين المواطن الجديد، ولن يستطيع شعب ان يحكم نفسه إلا إذا دأب أولا على تربية نفسه"

ومـــن روســـيا رحـــل في صيف 1910 مستصحبا معه هذه المرة فصيلتين من الكشافة، الى كندا والولايـــات المتحدة ، وكانت الحركة قد انتشرت فيهما على يد وليم لويس الصحفي المعروف الذي التقى يوما، وهو في لندن، بأحد الكشافين فأعجبته هيئته، وأعجبته أكثر ما رأى من تضحيته وتفانيه، اخذ بمجامع قلبه، ولما عاد إلى الولايات المتحدة تزود إليها بكتاب الطلائع ،والأخبار الكثيرة عن كل ما رأى وسمع في لندن عن الكشفية فكان أول من بشر بالحركة الجديدة في بلاده

وأقيمت لبادن باول في الولايات المتحدة حفلات عديدة تعرف فها إلى أركان الكشفية ودعائمها في الولايات المتحدة ..

الحركة اكتسب لها بها أعوانا ومناصرين، أخذت تسير بهم جنبا إلى الأمام

هذا كان شأن بادن باول في رحلاته إلا انه لم يكتسب لحركته في بلد من معاونين مثلما اكتسب لها في إنكلـــترا " لقد رأينا الملك أدور السابع يبدي لبادن باول كل تشجيع ،ويعرض عليه كل مساعدة ،وقد رفعه إلى طبقة الأشراف بلقب لورد، كما وزين صدره بالأوسمة الرفيعة

ولمـــا جاء بعده جورج الخامس سار على منواله في تحبيذا الحركة وتشجيع صاحبها، وفي 4 حزيران 1911 أقـــيم في حديقـــة وندسور " رالي " ضم ثلاثين ألفا من الطلائع شهده الملك بذاته، ولقد أعجب الحضور يومئذ بطريقة التجمع ابتكرها بادن باول،كان لها أروع الوقع، في

فبيـــنما كـــانوا في القـــديم يقفـــون وقفة الأصنام، في صفوف طويلة متراصة، ينتظرون أن يعرضهم المستعرض، إذا بهم اليوم متوارين عن العيان، وقد اختبأوا على مسافة من مكان العرض مؤلفين دائرة عظـــيمة في البعـــيد، وما إن أرسل البوق صرخته حتى هجموا هجمومهم المحترف، متدفقين من كل جانب، مرسلين الصيحات الضارية، إلى أن يبغوا إلى حيث يريدون فوقفوا في طرفة عين، وقفة رجل واحد، انه ليثير الحماسة ويلهب الشعور

ومن مناصري الحركة البارزين يأتي، بعد الملك اللورد كتشنر ، فلنسمعه يقول في "رالي" – و"لراني" هـــو مخيم يشترك فيه عدد من الفرق الكشفية :" أن حركة الطلائع تزيل بين الطبقات كل السدود، وتحـــي روح الإخـــوة والصـــداقة، وروح الـــنظام والقانون، والمواهب الشخصية ،والثقة بالنفس، والتجارب بين البشر واني اتركها لكم كلمة لتنقسوها على صفحات القلوب، كونوا الآن ، وكل أو أن،كشـــافين ولسوف تخبرون طوال حياتكم ما لدستور الكشاف من فوائد واني لأنصحكم بان لا تتركوا الكشفية تنقلب يوما بين أيديكم لعبة قديمة بالية"

والشخصية الثالثة هي اللورد روز بري ، فنسمعه هو أيضا يقول في مخيم "رالي":

" إنكم لا تنحازون إلى السياسة، ولا إلى الجيش، إنكم جمعية مستقلة بأنظمتها وأهدافها، أنها نشأت لـــتأخذ بالمـــبادئ السامية التي هي الخدمة للذات وللغير، والوطنية،والاستقامة، والشرف، والإيمان، والواجـــب هذا جل ما يتطلبه منكم دستوركم، وهو بذلك يزينكم بالأخلاق الرفيعة وإذا ما كانت لي أمنـــية أتمـــناها لوطني، فهي أن يقوم له رجال قد نشأوا وتدربوا على الأساليب الكشفية أن امة تنجب مثل هؤلاء الرجال لتقدم إلى العالم أعظم خدمة وتوليه اكبر شرف

وســـرت موجه الإعجاب هذه من المقامات الرفيعة الى طبقات الشعب، إلى الصحف، التي هي لسان الشـــعب، وهـــناك مـــا يقوله الصحفي ولسن: " لقد اخذ نرى فجأة في شورعنا ضربا من الفتيان يخـــتلفون كـــل الاخـــتلاف عما عهدناه من قبل، من صبان الأزقة الملاعبين، ذوي الحيل والخدع، والتســـكع والسيكارة، انه لفتى ذو القبعة العريضة، والركبة العارية، والقامة الهيفا، والألعاب الشيقة، انه الكشاف كم أحبه"

لم يكـــن كل ما قيل وكتب عن الكشفية مديحا وثناء، فلقد كانت هناك فئة من الناس مناوئة بعضهم يـــتهمون الكشفية بالروح العسكرية، وبعضهم بالروح الانهزامية المسالمة، والكشفية من كليهما براء، وأنها لحملة شعواء ظالمة شنتها بعض الأوساط عليها وعلى صاحبها، ناعتينه بالرجل الخرف الذي عاد إلى طـــور الطفولـــة، وناعتيتها بالحركة الصبيانية السخيفة التي تقوم على ألعاب ومعابث من الأوهام والأكاذيـــب والحـــيل، فـــان هي إلا نار الهشيم، وفقاعة الصابون، لن تلبث. حينما تخمد الحماسة المصطنعة التي ولدتها، أن تضمحل وتتلاشى ،وتصبح أثرا بعد عين

و لم يكن بادن باول ليعير مثل هذه الاتهامات أذنا صاغية، و لم يكن ليكلف نفسه عناء الإجابة عليها، إنهـــا تهدم بعضها بعضا، وأنها الحركة الكشفية ذاتها تسير سيرها الظافر، تحقق اهدفها التربوية الرفيعة لأفضل جواب يفحم كل متحايل جائر

لكنه كان يكتب كثيرا عن الكشفية، يشرح ويوضح ويوجه وينير فكان لابد له في سباق حديثه عن الكشـــفية أن يعرض لمثل هذه المزاعم الواهية بجملة عابرة ليس ليفندها ويدحضها في جدل عقيم ،بل ليرسم مرة أخرى، وجه الكشفية الحقيقي، وهاك المثل على ذلك :

" يقولــون أن روح الكشفية هي روح عسكرية حربية، ويقولون أيضا أنها روح انهزامية مسالمة، فمن من القولين نصدق؟ والحقيقة أن الكشفية تقوم على أسس خاصة، لا تمت إلى أي حزب من الأحزاب بصـــلة، إنها طريقة جديدة للتربية تسعى إلى مساعدة الوالدين والمعلمين في تنمية صفات الولد الأدبية والجســمية، مستخدمة لذلك أوقات فراغه، متوسلة إلى ذلك بوسائل شيقة في مجالات لعبة ومرحة، حتى تجعل منه رجلا سعيدا ، ومواطنا صالحا.

أن مـــا ندعـــوا إلـــيه من تعزيز روح الإخوة بين البشر، ومن التجارب بين الناس، لا يحول دون أن يـــنخرط الشاب يوما في سلك الجندية أو البحرية، في خدمة بلاده، كما أن مانلجأ اليه من أساليب وطرق إنما ينمي في الشاب الشخصية القويمة، التي لا تتهرب من المسؤولية والتي سرعان ما تستجيب للواجب الوطني يوم يدعوه داعية

لم يقـــض بـــادن باول إذا وقته في الإجابة عن هجمات الخصوم فلقد كان عليه من المهام المتزايدة ما يجعلـــه في شغل شاغل عليها وكان عليه مع ما كان عليه من أمور كثيرة، أن يشرع في تنظيم حركة المرشـــدات المتنامية، وقد رأيناهن يبرزن فجأة إلى الوجود في "رالي" عام1909 فرأى أن لامناص له من الاهتمام بهن، ومن الحاقهن بحركته كفرع لها للفتيان

والتفـــت بادن باول يبحث فيما حول عن نساء يساعدنه في العمل ،فلجأ إلى أخته اليبس، اسند إليها مهمـــة الإشراف على فرع المرشدات وتنظيمه، ورعايته، فأصدرت اليبس عام 1912 كتابها الذي بعنوان " كتاب المرشدات" جاء أساسا صالحا يبشر بغد مزدهر

إلا أن ضـــالته المنشـــودة وجدها حقا في الآنسة سومس، تلك التي سيطلق عليها يوما اسم "المرشدة الأولى" كما سيطلق على بادن باول اسم " الكشاف الأول"

كان ذلك على ظهر الباخرة التي كانت تقله إلى الهند الغربية، والى باناما، في جولة استكشاف واسعة في أمـــريكا، وفي أقطار المستعمرات البريطانية ،وكانت الفتاة مع أبيها، وراق بادن باول مارای فيها، طوال أيام السفر، من رشاقة مع اتزان، ومن براعة مع ذوق، ومن مهارة في كل ما تأخذ، تمارس شتى الأعمـــال دون عناء، وتحسن الرياضة بأنواعها، كما تحسن تنظيم الحفلات، وإعداد البرامج، وإخراج التمثيلـــيات، وتضـــافر بادن باول معها ،على ظهر الباخرة، في هذا الميدان، الذي هو ميدانه أيضا، وتباحـــث معها في موضوع الطلائع، وفي موضوع المرشدات، وفي غيره من مواضيع الحياة، فكانت لأراء فيها بينهما في كل هذه المواضيع على انسجام وتجانس، وعلى تجاوب تام

وعـــرض عليها بادن باول أن تساهم في حقل عمله في الكشفية ،فقبلت، وعرض عليها أن تشاركه مشاركة أوسع وأعمق، مشاركة حياة ،فقبلت وكانت قد كتبت إلى أمها تقول:" ليس من شخصية بـــارزة عـــلى ظهر الباخرة كشخصية الجنرال بادن باول الكشاف الأول" ...وفي وليمة العرس، التي

احـــتفل بهـــا في لندن، رفع الجنرال بوتار، رئيس وزراء أفريقيا الجنوبية كأسه على شرف العروسين قائلا: اشرب نخب تلك التي امتلكت الرجل الذي لم يستطع احد قبلها أن يمتلكه"

وكـــان لهذا الزواج إثره البعيد في حياة بادن باول، فاستقامت له أسباب العيش، واستطاع أن يتفرغ لشؤون الكشفية ، تساعده امرأة قد سمت بها إلى مستواه، وصار له الآن بجانبه من يسهر على صحته، ويراقب عن كثب ما يبذل من جهود، ومن أوقات، في سبيل غاية تملكت قلبه، لان بادن باول كان من أولئك الذين لا تستهويهم غاية فيتجندون لها، حتى تتملكهم، وتستبد بهم ، وتستنفذ قواهم

واكـــتمل هناء الزوجين بما رزقهم الله من أولاد، فجاء بيتر عام 1913 وجاءت هيتي عام 1915 وجاءت بيتي عام 1917 إنها السعادة كما تمناها، أخذت ترفرف بجناحيها فوق بيته

ولكـــن.. لا تستبقن الحوادث ولنعد إلى حيث تركناها، في مجال الرحلات وفي اوئل عام 1913 قام بـــادن باول مع زوجته بجولة في الجزائر وقد أواد أن يتم هذه الجولة على شكل مخيم طيار ، في جبال الصـــحراء، وهـــو أول مخـــيم تشترك معه فيه زوجته،وقد عاد منه كما يعود من كل مخيم، بأفكار جديـــدة، ومبتكرات طريفة، وأخبار اخذ يسردها على صفحات مجلة الكشاف وفيما يلي بعض ما ذكـــر عـــن مخـــيمه هذا في الجزائر قال:" اسقي على هذا المخيم ، لقد ولى سريعا، لكن حصاده من الاختـــبارات والاكتشـــافات والفوائد كان وافر عميقا، وكانت امرأتي تدير المخيم كما لا تديره إلا المرشـــدة القديـــرة، وكنا نضحك معا، إذ تبادر في كل فرصة سانحة، لغسل القصاع والقدور، فكان الجلـــوة كانـــت تسليتها المفضلة تهرع إليها كلما سنحت سانحة، ولها فيها طريقة جديدة قد ابتكرتها وخبرتها في المخيم ،كانت تعمد إلى حفنة من الملح والى قضمة من الحشيش ،فإذا بالقدور تلمع نظافة ،وعقلـــت عـــلى ذلك بقولي: كم توفر على نفوسنا من المتاعب، ومن الأمراض، إذا ما صرفنا على أدوات المـــائدة مـــا يلزم من العناية، وكانت امرأتي تستجيب ،بعد داعي الجلوة، داعي التجوال في أطراف المخيم، تصلح وترتب، تحرق قصاصات الورق، وتنظف وتزين ،وتسوي، كأحسن ما تكون ربة بيت في بيتها

وكانـــت الحدث الهام في السنة 1913 معرضا للاشتغال اليدوية والفنية، أقيم في برمنجهام ،عرضت فيه ما اخرجته أيادي الكشافين من إشغال حققوها في ساعات الفراغ، ظهروا بها للناس بمظهر جديد كشـــف عـــن ناحية شائقة من نواحي نشاطهم، ودل على ما يمكن في كل فتى من مكانة ومقدرت يجب أن يتعهدها المربون بالعناية والاهتمام، حتى تخرج إلى حيز الوجود بثمارها الطيبة

الحرب الكبرى

طلع عام 1914 على الكشفية بأطيب الآمال، فلقد كانت في ازدهار مطرد، تسير من فتح إلى فتح، ومن بلد إلى بلد، تقطع المحيطات إلى أقصى المعمور لقد أصبحت حقا حركة عالمية

وتضـــاعفت الجهـــود في الإدارة المركـــزية لمتابعة التنظيم، ومسايرة التطور، فأصدرت المجلة الرسمية للحركة سلسلة من المقالات كتبها بادن باول لرؤساء والمدربين يمهد لهم فيها سبل الكشفية، ويبسط لهم أصولها، ويشرح لهم أساليبها، على أوضح منهج، واقرب سبيل ،وفي نيسان عقد الكشاف مؤتمرا هامـــا في مـــا نشتر، جاء أثناء "رالي" ..وفي وسط مظاهرات كشفية رائعة وقد درس المؤتمر موضيع الســـاعة، وكـــان أهمهـــا اثـــر الكشفية في التربية، الأسس الدينية والأدبية للحركة، نظام الأوسمة والشـــارات، شبان الطلائع الاكبرون وفي حزيران استعرضت الملكة اكسندر في لندن احد عشر ألفا من الطلائع بينما اشتركت الجراميز لأول مرة في "رالي" عام أقيم لهم ومن هم هؤلاء الجراميز؟

انـــه فرع جديد نبت في دوحة الحركة الكشفية ،جاء مظهرا رائعا من مظاهر حيويتها، فلقد اتخذت حـــياة الكشاف تستهوي الصغار من الإخوة، فصاروا يرافقون كبارهم إلى حيث يجتمعون، يختلطون بهـــم، ويدرجـــون على طرقهم، ويمارسون ما استطاعوا نشاطهم، و لم ير المدربون أن يشدوا النكير علـــيهم، وان يقصـــوهم عن إخوتهم وعن الكشفية دون رحمة ، لم يطاوعهم قلبهم على ذلك، لكن الصـــغار ظلـــوا يزحفون من كل جانب، يتغلغلون بين الصفوف، يضايقون الطلائع بعددهم المتزايد، حتى لم يعد يوقف لهم تيار، وسرعان ما خطوا الخطوة الحاسمة، فصاروا يتزيون بزي الطلائع، يلبسون لباســـهم، ويحملون شاراتهم، ويسيرون، أقزاما بعصي المردة، فكان منظرهم يثير الضحك ويدعو إلى السخرية، مما ينفر الفتيان عن الكشفية، ويصرفهم عنها إلى غيرها

وأمام هذا الزحف الكاسح من الإخوة الاصغرين لم ير الرؤساء بدا من تأليف فصائل خاصة بهم ، ثم كتبوا إلى بادن باول يستفتونه في شأنهم يطلبون منه الإرشاد والتوجيه

ومـــا كان ليغيب عن بادن باول إن موضوع الصغار من الأهمية بمكان، و لم يفته، أن التأخر في تقرير مصـــيرهم يعـــرض الكشفية ذاتها للبلبلة والاضطراب،فعزم على درس القضية وحلها بأسرع ما يمكن وفـــيها كان يكتب إلى رؤساء الفرق إلى متابعة تجاربهم في هذا الحقل وطالبا منهم أن يوافوه بالتقارير المفصـــلة عما اختبروا ،كان يتصل بكل من له رأي يبديه من معاونيه، ليكون له الفكرة الصحيحة في الموضوع، ينتهي بها إلى الحكم الفصل، إلى أن توفرت لديه الأسباب فكتب في كانون الأول من عام 1913 يقول:

" يجـــب أن يكون للاصغريين نظام خاص، ويجب أن يكون هذا النظام غاية في البساطة، فالأمر، على مـــا اعـــتقد، على جانب من الأهمية، ولي لأود أن أطلق على الفرع الجديد، اسما من الأسماء التالية: طلائع الصغار، والجراميز، أو الذئاب،أو غيرها من الأسماء التي لا تمت إلى المدرسة بصلة"

ومـــا انتهت مدة الاختبار والتجربة، تتلمس المنظمة فيها طريقها إلى الحل السليم، حتى وضع السيد أيفر النظام المنشود للفرع الصغير نشرته مجلة الإدارة في كانون الثاني من عام 1914

إلـــيك خطوط هذا النظام الكبرى: تحية ،وشارة – هي راس جرموز- ووعد بسيط للواجب والخدمة ،وفحوص بسيطة ملائمة لمن كان بين التاسعة والثانية عشر

وأصـــدر بادن باول بعد عامين كتابه" الجراميز" ضمنه كل ما يختص بالحركة ،فكان للصغار مثل ما كان كتاب "الطلائع" للكبار

أما الفكرة الوضاءة التي فتق له نبوغه بها، فهي حكاية " موغلي" تلك الأسطورة الجميلة التي استقاها مـــن "كـــتاب الغابة لكبلغ" والتي ألهمت فيما بعد كل ما سواها من حكايات الجراميز التربوية، بها استهوت الصغار لأنها تكلمت إليهم بلغتهم، واتتهم بما يتلاءم مع سنهم وطباعهم، ولم يلبث الفرع الجديـــد أن انتشـــر في الـــبلاد وما انتهت السنة حتى كان قد انخرط في سلكه أكثر من عشرة ألاف جرموز يرتدون البزة الخاصة بهم، التي تختلف عن بزة إخوانهم من الطلائع كل الاختلاف

ونشأت بعد مشكلة الصغار مشكلة الكبار والمشاكل علامة لحيوية والتقدم، ومشكلة الكبار هي هذه: ما مصير الشبان الذين يتجاوزون السادسة عشرة، والذين لم يعد لهم في الطلائع من مكان وقد دخل كثرهم ميدان العمل ،هل يتركون وشأنهم؟

كلا أجاب بادن باول، واخذ يعالج المسألة كما اعتاد مفكرا ،مستشيرا ،مختبرا

ومـــا كـــاد يتصل إلى المرحلة الأولى من الحل ويباشر العمل حتى أتت الحرب فهدمت ما بدأ ببنيانه، وشتت شمل الشبان، ولما أعيد البنيان بعد الحرب كان على نطاق أوسع، فجاء على ما تراه اليوم في فرع الجوالة

أما التجربة الأولى فكانت على شكل رابطة اسماها رابطة القدامى الطلائع" جعل لها ثلاث أهداف:

توطيد الصلات التي تربط الشبان ببعضهم، وثم تربطهم جميعا بالكشفية

تعزيز الروح الوطنية التي بداوا يتشربونها في الطلائع

اســـتدراج مـــن لم ينتسب يوما من الشبان إلى الحركة الكشفية لينضم إلى الجمعية الجديدة، فتتاح له الفرصة بذلك لخدمة بني أمته

وســـارت الجمعية الجديدة، مدة حياتها القصيرة، على هذا المنوال ، وأقامت أول مخيم لها في آذار، ثم نشبت الحرب، فتفرق الشبان في ميادينها ملبين داعي الواجب والوطني وتقوضت أركان الجمعية إلى أن انبعث بعد الحرب على شكلها الجديد

لم يكـــن خطـــر الحرب، الذي ما كان ليخفى على احد، ليخفف من نشاط بادن باول، واخذ يهتم بتوطيد دعائم المستقبل ،وكان لابد لذلك من إنشاء صندوق عام للحركة يضمن لها استقرار ويكفيها مؤونة السؤال وأرسل في أوائل العام نداء حار إلى مواطنيه انهاه بالعبارة التالي:

" إذا صعب عليك أن تنخرط في سلك الجمعية لتضطلع فيها ببعض المسؤوليات، فمد على الأقل يدك إلـــيها بمـــا يوازي ما تشعر به نحوها من عطف وتقدير ، وإننا لنقول لك الآن ما يقوله قطاع الطرق للمسافرين: الكيس والحياة"

وطاف البلاد محاضرا، يستندي الأكف، ويكسب الأنصار، فجمع في مدة ستة اشهر مائة ألف جنيه، إلا انه توقف عن متابعة السعي عندما تشبت الحرب، فلقد قامت أمامه واجبات من نوع أخر ،هبت البلاد كلها لتلبية ندائها

وكتب بادن باول في مجلة الإدارة، عن الحرب ما يلي:

لقـــد أتت الحرب دليلا على أن الروابط التي تربط فيما بين الشعوب في عرض البحر، حيث كانت الحاجـــة إليهم اشد، ورسم أميرال السواحل الخطط ،وتطوع للعمل بموجبها ثلاثون ألفا من الطلائع، قاموا بخدمتهم فيما منذ أب 1914 حتى آذار 1920

وقـــد قام بادن باول بتفتيش أكثر مراكز الخفر الساحلي، ولاشك انه شعر باعتزاز وفخر عندما لمس لمـــس الـــيد أن كشـــافته قد حققوا ما عقدت البلاد عليهم من أمال، وأنهم لجديرون بما أولتهم إياه السلطات من ثقة فكتب يصف ما شاهد:

" إنهـــا لذكـــريات قديمة من جولات الاستكشاف الليلية، تثيرها اليوم في نفسي جولات مثلها على الساحل في دورية من الكشاف خفراء السواحل،

وانحدرنـــا إلى الســـاحل، سالكين إليه طرقا ملتوية وعرة، يضيع فيها من يطرقها الأول مرة، فكانوا يســـيرون فـــيها ســـير عارف خبير لا يجهل من معالمها شيئا ولاغرو فلقد كانت البرقية التي كانوا يقصـــدون بها صاحبها، تحمل رقم 1119 لقد سلكها، الدوريات الساحلية إذا أكثر من ألف مرة، تحمـــل الرســـائل والبرقيات، في الشمس والمطر، في العواصف والزوابع، إلى أن تصل بها إلى الحاكم القاعدة البحرية في مقره

وفـــيما نحـــن سائرون أشار الدليل بيده إلى نافذة مضاءة في إحدى المزارع، توجهنا إليها على التو، وطـــرق الدليل لباب، وطلب من أصحاب المزرعة بأدب أن يتقيدوا بأوامر التعتيم، ثم تابعنا طريقنا، بينما الدليل تخلف عنا قليلا ليشرف على تنفيذ الأوامر، إنها لتدابير حكيمة يتخذونها ،إنهم لم يكونوا ليألوا جهدا في فحص كل شيء والانتباه إلى كل شيء، والتحري من كل شيء

تعيش الفصيلة الساحلية أكثر الأوقات في بيوت من غرفتين أو ثلاث يقوم فيه الكشافون أنفسهم على شؤونهم، من طبخ وغيره، ويضع رئيس الدورية كل يوم تقريره للسلطات المختصة

واليك بعض ما ورد في مثل هذه التقارير

" حذرنـــا مدمـــرة مـــن صخور كان الضباب يواريها عن العيان، رأينا طائرات على مسافة بضعة كيلومـــترات تـــتوجه إلى الجنوب الشرقي، فأبلغت السلطات أمرها، لغم عائم دلنا عليه احد قوراب الصيد ... الخ "

ورأيـــت فصـــيلة بدراجاتها لا تنفك رائحة غادية بالرسائل والبرقيات ... إلى حاكم القاعدة البحرية ،ومـــنها إلى الصـــيادين، ولقد أخذني العجب من الطلائع يقومون بما أنيط بهم من أعمال، بمثل هذه الهمـــة والجـــدارة، وقد خلت مراكز عديدة لخفر السواحل من ضباط وموظفين ،بحيث أن مقاليد الأمـــور فيها كانت كلها بين أيدي الطلائع، فكان على رئيس الفصيلة، أن يأخذ من التدابير ما يرى ويسهر على سير الأمور، ويعني بالتغذية والإقامة، يوفرها لمن في معينة من الكشافين

رايتهم يقضون في المراكز الواحد، وفي المهمة الواحدة، أسبوعا بعد أسبوع، وشهر بعد شهر دون ان يملـــوا العمـــل، أو يـــنال مـــنهم نصب فكانت الوجوه تطفح بشرا وصحة يا للشباب، ما أعظم ما يستطيعون من أعمال، إذا ما وضعت فيهم الثقة ،وأثيرت فيهم الحمية "

وقـــد يتساءل بعضهم: لماذا لم يعهد إلى بادن باول وقت الحرب بقيادة جيش من الجيوش في ساحات القتال؟

والجـــواب على ذلك أتى به سكرتير وزارة الحربية بقوله:" انه لمن السهل أن نجد قوادا كثيرين أكفاء نعقـــد لهم اللواء على احد الجيوش لكن الطلائع، التي يديرها بادن باول ،لن نجد من يقوم مقامهم في ما يقدمون للوطن من خدمات"

وســـرت زمن الحرب عن بادن باول، كما سرت عن غيره من الرجال العظام، شتى الإشاعات وهذه أطرفها:

بـــرق يومـــا ، احد محرري الصحف في نيورك يقول:" لقد شاعت هنا عنك أخبار غريبة، منها انك جاســـوس وان قـــد زج بـــك في الســـجن، ...كلمة منك ، تطيرها لي على عجل تسد كل هذه الإشاعات وتفتح قلوب أصدقائك الكشافين:فأجاب بادن باول قائلا:

" لا يمكـــن أن يكـــون خير زجي في السجن صحيحا، إذ قد نفذ بي، منذ شهر على قول جريدة من شيكاغو- حكم الإعدام رميا بالرصاص ،بجرم التجسس وفي لا ادري، بحقيقة لحساب من أنا أتجسس إنما ادري أني منصرف بكليتي إلى خدمة بريطانيا العضمى

انـــه حقـــا لكثير الإشغال، وهاهو يدخل ويدخل طلائعه معه حركة " بيت الجندي" وقد ساهم مع طلائعه في إنشاء عدد من إلى الجنرال الذي ابلغ تعليق على ما يبذله من الجهود في هذا السبيل : "

" عزيزي آليي، في سعي في جمع المال لإنشاء "بيت الجندي" فرنسا ولقد انهالت علي الطلبات من كل جانـــب وعلي الآن أن على المواد اللازمة ،وان احصل أيضا على الأشخاص اللازمين، نساء ورجال،

أضعهم على دائرة هذه البيوت، واني لأمس هنا كبيرا على هذا المشروع، وقد جئت أسألك وان تضع خطط العمل إذا كنت بحاجة، للشتاء المقبل ، لي مثل هذه البيوت، أنشئها لجيش ولي كم بيتا منها أنت بحاجة، وقد وجه الجيش الثاني لي طلبه منها لأسر جدا أن أقدم لك منها مثل ما أقدم لغيرك"

لم تلهه مثل هذه المهام العديدة عن مهمته الكبرى، وقد انفتح في الحرب أمام الطلائع ما افتح من مجالات للنشاط واسعة ، لم تبق المرشدات ذاتهم بمنأى عنها فلقد قامت المرشدات كثير مما أتت به حرب التحررية النسائية من أفواج و...تراخت بهما عن التقاليد لتنشد فأقبلت النساء يمارسن من الأعمال ما كان في حمى الرجل ، .. بين فيه منابه لخدمة الأمة

لم تبق المرشدات إذا في غمرة هذا النشاط مكتوفي الأيدي امرأة من طراز بادن باول، هي امرأة بادن باول، قامت على رأس حركتهن، رفعتها المرشدات ذاتهن إلى المقام الأول منها، فنظمت حركة المرشدات على غرار حركة الطلائع وجاء كتاب بادن باول عام 1917 مالئا للثغرة، مستكملا للبناء ، لقد كان الكتاب "المرشدات" :هذا ما كان لسابقه كتاب " الطلائع" من الأثر الدائم، كلاهما دستور الحركة الحامل لروحها، الضامن لمستقبلها

أعمال من الواقع اليومي كانت تتراكم عليه، دون أن تستنفذ، مع ذلك قواه، فلقد لا ينفك ، حتى في حمى العمل وفي حمى الأشغال يدرس ويفكر ويقترح وهذا اقتراح من اقتراحاته يقدمه إلى السيد ايفرت، يدعمه ببراهينه، وأدلته، مما يدل على انه قد أشبعه درسا ، انه يقترح أن تنشأ كفاءة خاصة بأبناء الريف، مع شاراتها وممارساتها تحت اسم: حامي العصفور ،فيقول:

" علينا إذا أن نفتح أعين ابن الريف على الطبيعة التي حوله يدرسها ويحبها، وعلى الحيوان يحبه ويحسن معاملته، وقد تكون حماية العصفور من أحب مجالات، نشاطه في الريف، واني لاقترح من تنشأ كفاءة باسم" حامي العصفور" ،ينالها الكشاف بعد امتحان ناجح في موضوعها، ويحمل شاراتها الخاصة، ريشة على قبعته، أنها ستكون له مجلبة للسرور، كما ستكون مدعاة لدرس الطبيعة درسا اكبر، وأننا بهذه الكفاءة لبالغون من الكشفية أهدافها الأساسية من تنمية الملاحظة والتمرس في الخير والرياضة في العراء والخدمة (إذ يحمي الكشاف العصفور) وتدريب الأيدي (إذ يصنع له الملاجئ)

وانتهت الحرب وقد حمل السلاح فيها مائة ألف من كشافين قدماء ورؤساء ومدربين، مات منهم عشرة ألاف في سبيل الوطن

واطل على العالم عهد جديد، اخذ أقطابه يعملون فيه على تشييد صرح للسلم دائم فهل للكشفية من دور في هذا العالم الجديد، ومن مساهمة في تشييد صرح السلم فيه؟

"الكشفية عامل السلام" هذا عنوان مقالة بادن باول كتبها في أواخر الحرب، قال فيها ما يلي:

"لقـــد هبت شعوب العالم تسعى لبناء سلم دائم على أسس وطيدة فلا المعاهدات – وقد لا تلبث أن تطـــرح كقصاصـــات ورق – ولا الضـــمانات المالية من ذهب وفضة، ولا غيرها من وسائل القمع والردع، لتصلح أداة السلم ومادة لبقائه، فلا يبني السلم الدائم إلا الشعوب ذاتها، عواطف الشعوب ، إرادة الشـــعوب، إيمان الشعوب ، وان للكشفية هنا لدورا، فلقد ضمت شبابا من كل أقطار العالم ،وفي فروع وشعاب، تنتمي كلها إلى دوحة واحدة، واصل واحد، وليس مثلها لصهر شبيبة العالم في أخـــوة حقة، تشدها إلى بعضها البعض روابط من الصداقة متينة لا تجعل للخلافات، إذا ما نشأ منها بين الشعوب، من خطر على السلم ،طالما يعالجون حلها بروح الأخوة والتفاهم، وليس بروح البغضاء والشحناء

انـــه لحـــلم جميل حلم الأخوة العالمية، إلا أن بادن باول قد عاش هذا الحلم طوال حياته، يراه حقيقة تتحقق وليس نظرية في الألوف من شبيبة العالم

عهد الازدهار

كانـــت أعوام ما بعد الحرب أعواما حاسمة لحركة الكشافين والمرشدات، فلقد أدت للبلاد خدمات جلى، أظهرت بها مالها من الشأن، وما انطوت عليه من المقومات ،مما حدا بالحكومة إلى الاعتراف بها اعترافا رسميا، أصبحت به من صميم حياة الأمة

إلا أن مـــثل هـــذا الاعتراف لا يخلو من مخاطر فلئن جاءها بالاستقرار والطمأنية، وفتح أمامها أفاقا واســـعة للنشـــاط، وكفاها مؤونة القلق على المصير والمستقبل فانه قد يجيئها يغير ذلك، فيكون داعيا لـــتراخي العزائم، والاتكال على الأمجاد القديمة، والاعتماد على عطف السلطات، فتنحرف المؤسسة عن خطها الأولى، وعن روحها الأصلية، وعن غاياتها الأساسية

قد يخشى أن تنام عندئذ على إكليل الغير

إلا أن بادن باول كان هناك، وهولا يزال في عنفوان قوته، وصلابة عوده، وهولا يزال خصب الفكر، واسع الحيلة، يتقدم كل يوم بفكر جديد، ومسعى جديد

انه ليس ممن يسكرهم النجاح، ويقعد بهم الفوز، فما الفوز لديه إلا مرحلة لها ما بعدها، في ميدان من الكفاح لا ينتهي

وكـــان أكثر ما يشغل باله، في تلك الحقبة تهيئة الرؤساء للحركة، إنها المسألة حيوية احد يعالجها منذ عام 1914 إذ نظم سلسلة من الدروس النظرية، عقب عليها باختبارات عملية وكان يحض الرؤساء على العمل الشخصي، ولقد كتب، على اثر زيارة له لأحد مخيمات، الرؤساء، ما يلي:

" علينا أن نحدد أولا، في تدريبنا للرؤساء، ما هو أساسي من الكشفية، وما هو ثانوي، حتى بدأب كل رئيس طليعة على تعلم ما هو أساسي ، وهذا الأساسي قد وفاه كتاب "الطلائع" حقه من الشرح والتفصيل فعلى هذا الكتاب نبني برنامج العمل، نوزعه على عدد الأيام التي تسنح لها ،وندرسه درسا تقترن فيه النظريات بالاختبارات، وليس للكتاب من غاية غير ما ذكرنا من إرشاد الرؤساء إلى مسالك الكشفية الصحيحة

ويأتي بعد ذلك موضوع المخيم، تزود الرؤساء فيه بمعلومات اللازمة عنه تعلمهم بها كيف يضربون خيامه،وكيف ينظمونه، وكيف يديرونه، ومخيم لرؤساء هذا لا يختلف عن غيره من المخيمات، والفصائل يؤلفها الرؤساء ذاتهم، ولكل فصيلة رئيسها، كالمعتاد ،فيتمرسون في نظام الفصيلة وأساليبها، كما يتمرسون في مختلف وظائف المخيم، فيكون احدهم، يوما الرئيس ويوما أخر الرئيس المعاون، أو غيره من الأدوار التي ينقلب كل منهم فيها، طوال أيام المخيم"

وأرفق بادن باول حسب عادته، القول بالفعل فقدم المخيم الرؤساء برنامجا مفصلا قسم فيه الرؤساء والمدربين إلى فصائل من خمسة، فأعطى كل فصيلة خيمتها، وعهد إلى كل رئيس أن يدير فصيلته يوما، وطلب من كل فصيلة أن تقدم من أفرادها، بالتوالي، من يحفظ المؤونة و الاعتدة، ومن يشتري الأطعمة واللوازم، ومن يعني بالأسباب الصحية، ومن يخدم، ومن يطبخ ومن يتكلف ما سوى ذلك من شؤون المخيم

وكان على بادن باول بعد أن وضع نظاما خاصا لتدريب الرؤساء ، أن يختار المكان الذي تقام فيه مخيمات التدريب هذه وبعد ما تداولت الإدارة في الأمر وقع اختيارها على " جلول بارك" فأرسلت تخبره ،فأجاب:

" يا لها من بشرى لكان الموقع خلق لنا خلقا، لابد مع ذلك من ترميمات في المكان ليصلح لنا مقرا، كنت أود أن أراه، لكن بما إنكم قد وقعتم جميعا عليه، فان يكون إلا كما تتطلب المصلحة ،واني لأرجو أن يأتيني بعض الرؤساء والمدربين، في أيام عيد الفصح، لا مهد لهم السبيل في مخيم خاص"

وتم تدشين المكان في 25تموز1919 وبعد أيام قلائل أي في الثامن من أيلول، قيم فيه المخيم التدريبي الأول للرؤساء

وتوالت بعده المخيمات، سارت كلها على الخطة التي رسمها لها بادن باول فكان فيها ينقسمون إلى فصائل وكان كل فرد من الفصيلة

يتسلم بدوره زمام قيادة الفصيلة، وكانت الفصيلة هنا أيضا الوحدة في المخيم، كما كانت الوحدة في العمل، والوحدة في الألعاب، والوحدة في التمارين،

هـــذه الخطوط الكبرى في إطار نظم كل رئيس تفاصيل مخيمه وظروفه فكان بادن باول يتتبع في هذه المخـــيمات التدريبية سير الأمور، ويوحي إلى أربابها بعض التدابير، إلا انه لم يكن ليتدخل في شؤون من بيده " دفة المركب"

وقـــد حـــدث له مع ذلك أن تدخل يوما، إذ رأى أن المخيم قد شط عن جادته، فاخذ عندئذ ،بيد حازمة، زمام الأمور، ليصلح الخلل، ويقوم السبيل ،ويعيد المخيم إلى نهجه، وكان في بادئ الأمر يزور كل يوم مخيم " جلول بارك" ويكثر من الاتصال بالرؤساء المخيمين، ولم يلبث أن رأى أن يقيم أيضا بعض المخيمات التدريبية على المستوى إلا على يدعوا إليه مفوضي الفرق والمناطق

وســرعان مـــا تتحقق لديه الفكرة ، وهو ذا أول مخيم للمفوضين أقيم في "جلول بارك" في حزيران 1920 وقد ترك احدهم لنا تأثيراته منه فقال:

" كنت يومئذ احد المخيمين، ولم يكن لي يومئذ ببادن باول معرفة وثيقة، فلقد التقيت به مرة في احد مخيمات "الرالي" وكنت ،كأكثر الرؤساء، نهيب جانبه، ولقد دهشت، كما دهش غيري، عندما رأيته في هذا المخيم اقرب إلينا من كل قرب، فهو في متناول كل منا، وكأنه واحد منا، حتى كدت ننسى رتبـــته ومكانـــته، ولقـــد اســـترعى انتـــباهي منظر المفوضين، وهم يفدون إلى المخيم بعضهم في الســـيارة،وبعضـــهم بالدراجة، هذا يحف به من حقائب الأمتعة ما يلزم وما لا يلزم، وغيره يخطر في بـــنطلون طويل عريض: وقميص ابيض مكوي، وياقة عالية منشاة، بينما بادن باول لم يأت معه من الأمـــتعة إلا بإلـــزامها وابسطها، فكان يستقبل مثل هؤلاء بسخرية لطيفة ناعمة لا تجرح، يعرض بها لذوي الأيادي المترفة البيضاء"

وهـــاهو ينصب خيمته، ويبدأ بتجول بين المخيمين، خفيف الروح، خفيف الجسم ،خفيف الثياب، يلقى هذا بكلمة لطيفة، وذاك بنكتة مضحكة، وأخر بحديث هام وقد رآه الذين أفاقوا في اليوم التالي باكـــرا، كيف وقف أمام خيمته يمارس، كأحد الكشافة، رياضته البدنية اليومية انه حقا لرئيس الذي يرفق الكلام بالعمل"

وعادت مشكلة القدامى من الطلائع تلح عليه تلج،بعد أن انهار من قام به في سبيل حلها من جهود، إذ باء مشروعه لجمع شمل القدامى في رابطة ،بالفشل وقضت الحرب على ما تحقق منه في أول عهده وأخذت فكرة الجوالة، تخرج إلى النور وتتوضح لقد شعر انه بحاجة إلى غاية يرفقها لهم، مثل أعمى يوجههـــم إليه لا إلى شارات وعلامات ومظاهر خارجية ،كما هي الحال في الطلائع أما سوى ذلك من التنظيم، فيتركه بعدئذ إلى الحركة تنصر فيه في وقته

والغايـــة ، قد وجدها : هي (الخدمة ..والمبادئ التي تسير عليها الخدمة قد وجدها أيضا: هي تعليم الفروسية في جمعيات الفرسان، ولقد تبسط بادن باول في موضوعه هذا فقال:

" إن مـــرحلة الجوالـــة هـــي المرحلة الثالثة من أسلوب التربية الكشفية ولهذه المرحلة أهميتها في حياة الشـــاب إذ تحفضه في محيطه من عشرائه وفي جوه من الصداقة الخالصة، يحميانه ويرعيانه في سن هو فيها أحوج ما يكون إلى مثل هذه الحماية والرعاية

لكن الشاب لن يبقى طويلا في منظمة إلا إذا وجد فيها غاية وعملا إنها الخدمة توحي إليه هذه الغاية وتوفر له هذا العمل ،وأنها ليست بالشيء الجديد، فلقد نشأ على مثل هذه الأفكار،بدأ يسلك سيلها وهو جرموز، ثم أكشافا، وأني لأفهم " الخدمة" على الشكل التالي:

خدمـــة ألذات: إذ يسعى الشاب إلى تحصيل مهنة يرتزق منها، فتعود عليه وعلى المجتمع بالخير الجزيل فـــلا يكون عالة على ذويه وعلى المجتمع، وهو يرعى صحته وينمي قواه الجسمية، في مجالات الهواء الطلق

خدمـــة الحركة: إذ يزور الجوالة حركة الجراميز والطلائع بالرؤساء الأكفاء ،فيخدمونها بذلك فضل الخدمة

خدمـــة المجـــتمع: إذ يسعى ليكون فيه عضوا عاملا يؤدي كل ما يترتب عليه نحوه من واجبات ومن خدمة على أحسن وجه

لا تخـــرج خدمـــة الجـــوال عن نطاق شغله اليومي : إذ ليست على هامش حياته العادية ..أنها..بالا حرى، مهنته ذاتها يمارسها في خدمة المجتمع

هـــذه حركة الجوالة: وهذه أهدافها، وقد أخذت تسلك طريقها الخاص، بجانب أخواتها، من حركة الطلائع، وحركة الجراميز وحركة المرشدات

هلازودها بادن باول هي أيضا بكتاب بمثابة دستورها لها ؟

لقد راودته الفكرة فوقفت بإزائها طويلا، موقف المتردد، لا يعزم لأنه يرى في حركة الجوالة مالا يراه في سواها من اتساع المجال، وبعد الغاية وسهولة الأسلوب، ولين المبادئ انه لا يرى أن يفيدها كغيرها بقوانين لقد أطلقها روحا ، روح الخدمة تشتعل في قلوب الشباب يمارسونها في مجالات الحياة اليومية كما تؤاتيهم الظروف

إلى أن ظهر الكتاب أخيرا عام 1922 بعنوان" طريق النجاح" يحمل إلى الشبان هذه الخواطر وأمثالها عـــن الخدمـــة، يحل مؤلفه لهم بها ما استعصى من مشاكلهم الخاصة، يرشد ويوجه، وينهض الهمم، ويســـدد الخطـــوط إلى الغاية السامية، بما عرف به من خبرة واسعة لشؤون الشبيبة ومن اتصال وثيق بأوساطها

ولقـــد تجـــاوز الكتاب يومئذ حدود الكشفية، كغيره من كتب بادن باول فانتشر بين الشبية انتشارا انهالـــت معه الرسائل على صاحبه، الشبان يسترشدونه في مشاكلهم فكان يجيب على جميعها، لا انه كاد إذا ما عرف الشاب واطلع على حياته، يخوض معه لموضوع خوضه وفيا شافيا

إليك احد هؤلاء الشبان وقد شكا إليه ميله إلى تجنب الناس حبه للعزلة والانفراد فأجابه:
" اعرف الكثيرين من مثالك، واني لا أجدهم ..تشكو منه تعساء ومنهم من وجد له من هذه الحالة، مـــع الـــزمن ، مخـــرجا وقد يبقى غيرهم على ما هم عليه من حب الانفراد، مدى حياتهم، دون أن يصـــيبهم من جراء ذلك مضامة، هل أنت من هواة الصيد، أو السير على الأقدام؟ لن ينغص انفرادك علـــيك ما تأتيك به هوايتك من لذة وسعة، أما أنا فما كنت يوما بأسعد مني في وحدتي ، اذهب إلى الصـــيد وحدي، والى النزهة وحدي ، والاستكشاف وحدي، وأكثر رجال الصيد أو الاستكشاف كانوا من هواة الوحدة، وإذا ما سايرت ميلك هذا إلى الوحدة في تخيمك وفي نزهك، وفي جولاتك، فـــانك لتنمي فيك شخصية فريدة، طريفة، ذات مزايا خاصة لم تكتسبها من احد، ولم تقتبسها من احد، ولم تتشبه فيها بأحد ، على أن لا يغرك مع ذلك حبك هذا للوحدة، فتظن نفسك من طينة غير طيـــنة الناس، ومن جبلة غير جبلتهم، خالط الناس إذا وعاشرهم، ولا تنفر منهم، فذلك لا يتنافى مع حبك للوحدة، اضحك معهم واعبث معهم ما استطعت"
واليك مثلا أخر من أجوبته"
" هـــل لـــك من هواية ؟ هل تحسن الضرب بالمنجل، وإطلاق شبكة في نهر؟ انك بينك تستطيع؟ أن تفهـــم القـــاعدة الذهبية التالثة: لا تستسرع الأمور ،ولا تنهك قواك في استعجال ما تأتيك به الأيام عفوا، لا بأس من الاهتمام بالغد ، ومن السعي إلى المستقبل إلا انك لن تنال منه مثالا إذا ما أرهقت نفسك في طلبه، في حمى من النشاط تريد أن ترتفع به طفرة واحدة إلى حيث تصبو، قبل من الاهتمام بنفسك وأكثر من الاهتمام بغيرك، فإذا ما ضيقت من أفقك ، فانك لا تلبث أن تنكمش على ذاتك في مرارة الأفكار السوداوية، أما إذا وسعت من أفقك ،فانك لا تلبث أن تشعر أن الحياة مغامرة وما أجملها من مغامرة
هـــذه حـــياة القلم يكتب ويجيب ويرسم الخطط ويضع التصاميم لشتى المشاريع، على طاولته، كأنه رجـــل غـــرفة وحســـب حياة مع ذلك لا تلهيه عن العمل، لابل تقده إلى العمل ،فهو دائما على الطرقات، دائما هنا وهناك في مجالات الحياة، بين شبانه، فالعمل لديه غذاء للفكر والفكر لديه سبيل للعمـــل، فهما لديه متكاملان، فلا الفكر يبني قصوره في الهواء ولا العمل يأتي بحركاته فارغة هوجاء جسما بلا روح
وانـــك هكذا لاتفتأ تراه في هذه الفرقة، وفي ذاك " الرالي" وفي ذلك المخيم، يتفقد ،ويلاحظ، ويمثل، حـــتى إذا جـــاء غرفته وضع على القرطاس ما يمليه عليه الفكر من مدح أو ذم، من نقد أو تحبيذ من تجديد أو تشديد، فيكتب مثلا إلى مفوض "الرالي" الذي زاره أخيرا"
" إنهـــا ملاحظات أبديها لك دون أن ألبسها ثوب النقد الخشن، لقد كان الجراميز قليلون جدا،وقد يكـــون السبب أن مدارسهم لم تمنحهم الفرصة لذلك، فلا بأس بهذا العدد، وعلى كل فاني ألاحظك

كثيرا على أن تعير الجرميز اهتمامك، فإنهم الينبوع الذي منه تستقى الطلائع، فلا يجب أن يشح كما وارجوا أن تنتشر في ناحيتك الطلائع البحرية، أن ذلك لسهل في بلد يعتنق فيه أبناؤه مهنة البحر على أوسع نطاق "

وهذه ملاحظة عن نظام التجمع، انه لم المستحسن، بعد نشاط كشفي صاخب، كلعبة أو ركضة، أن يقـــع فجأة على الجميع سكوت تام قاطع، يسود على اثر صرخة من الرئيس، بالقرن أو بدونه، أنها بادرة تترك في جمهور الحضور إثرها، وتنم عن روح النظام الذي يجب أن يسود في المخيم

انهـــي سلسلة ملاحظاتي بثناء عما رايته من تعزيز الرقصات والأغاني الشعبية، تعيد إليها سابق مجدها، فما أحسن هذه الرقصات والأغاني وسيلة لتنشئة الطلائع والجراميز

كلمتي الأخيرة أني عدت من زيارتكم تملاني الثقة، ويملاني الأمل"

واتـــى عـــام 1918 وفيه تقع ذكرى مرور عشرة أعوام على تأسيس الكشفية وكان بادن باول قد اقتراح منذ 1916 أن تقام لهذه الذكرى بعض الاحتفالات، إلا أن الحرب، وكانت على أشدها، قد حالت دون تحقيقها هذه الفكرة وأرجى العيد إلى عام 1920

وتســـاءل بـــادن بـــاول أثناء ذلك قائلا لماذا لا ندعو في هذا العيد، إلى "جمبوري" إلى تجمع عالمي للكشافة في مخيم تشترك فيه كل الأقطار؟

ولذكرى ذكرى الكشفية برمتها لها ولعيد عيد كل كشاف في العالم؟

ووقع الاختيار على "اولمبيا" في لندن مسرحا للعيد، وعلى ريشتموند وحديقتها مكانا للمخيم

وتوفـــدت فرق الكشاف من كل الممتلكات البريطانية ومن إحدى وعشرين دولة غيرها، فكان هناك كشـــافون من أمريكا، ومن الصين، ومن النرويج، ومن سيام، ومن الشيلي ،ومن اليابان،..أتوا جميعا تربطهم روابط من الإخوة الكشفية ،في وحدة من الأهداف والمساعي،

وقامت احتفالات متنوعة من تمثيليات ، ورقصات، وألعاب، وأغان، على مسرح الطبيعة الرائع، تخفق في جوانبه إعلام الدولة ، وتتردد في أجوائه لغات العالم

وانتهى الأسبوع الحافل، وجاء المساء الأخير، وبعد مشهد جميل من مشاهد التمثيلية العظمى التي دار موضوعها حول اتحاد دول العالم لبناء السلم، وقف بادن باول خطيبا، فوجه إلى الكشافين الحاضرين، ومن خلالهم إلى كل كشاف في العالم ،النداء التالي:

أيها الإخوة في الكشفية:

تسود بين شعوب العالم فوارق من المبادئ والشعور، كما تسود فوارق من اللغات والأجناس، ولقد علمتنا الحرب انه لا يحاول شعب من الشعوب أن يفرض إرادته على غيره حتى يلتهب العالم كله بنار حرب أكلة ولقد علمنا الجمبوري من جهته، أن الوئام يسود فيما بيننا على اختلاف أجناسنا، إذا ما احتمل بعضنا بعضا ، وتسامح بعضنا مع بعض ومن هذين التعليمتين:تعليم الحرب وتعليم الجمبوري

تنـــتهي إلى عهد نقطعه على أنفسنا أتريدون أن نضع دائما نصب أعيننا هذين التعليمين، فنذهب من هـــنا وقد عزمنا على العمل في سبيل الصداقة العالمية، والإخوة العالمية؟ فنكون أداة فعالة لنشر السلام في العـــالم، والسعادة بين البشر أيها الإخوة هل ترون معنا هذا الرأي وهل تسعون معنا هذا السعي ؟ اجيبو.."

فكان الجواب رعدا من الأصوات، ارتفع من كل الحناجر وفي كل اللغات، شق عنان السماء

وفي غمرة من الحماسة أعلن الكشافون بادن باول "الكشاف الأول" ثم حملوه ،وداروا به ، في موكب حافل، في أطراف المخيم، بينما كان تصفيق الحاد يرتفع، موجه تلو موجه، يطبق الآفاق يعلن ختام " الجمبوري الأول"

لم ينته" الجمبوري" كما تنتهي الاحتفالات العديدة، على عواطف وانطباعات لا تلبث أن تتبدد، لقد أتـــى بنتيجة وكفاه نتيجة انه ترك بعده والمكتب الدول الدائم للكشاف" أتى خاتمة طبيعية لاجتماع دولي رائع

حان للحركة الآن أن تستنطق الأرقام، وجاء الإحصاء الأول العام، سنة 1922 باعثا لأطيب الآمال فلقـــد بلغ فيه عدد الكشافين مليونا وعشرين ألفا ، توزعوا على اثنين وثلاثين دولة، وجاء الإحصاء الـــثاني عام سنة 1939 محققا للآمال و فاتحا للكشفية أفاقا لاتحد فلقد بلغ عدد الكشافين فيه ثلاثة ملايين ونصف المليون

وفي عـــام 1924 قام الجمبوري العالمي الثاني في كوينهاغن، عاصمة سانمرك فسار على منوال سابقة مـــن احتشاد والاحتفالات، وفي ختامه استضاف الكشافون الدانمركيون في بيوتهم رفاقهم من كشافي العالم، وقد عن بادن باول على "الجمهوري" الثاني هذا بالكلمة التالية:

" لم تعد الكشفية في مرحلتها الأولى، مرحلة التجارب والمحاولات، تتلمس فيها طريقها بحذر وتردد، لقـــد بلغـــت أشـــدها، وثبتت أقدامها، وأصبحت واضحة المعالم، واسعة السبل، فإذا بها في طليعة الحـــركات التي تعني بتربية الفتى لقد أظهرت للأهل والمعلمين وللمواطنين أجمعين، إنها جديرة بالثقة الـــتي وضـــعوها فـــيها، لتنشئ لهم جيلا من الرجال أشداء صالحين، ولقد وسعت، بهذه التجمعات العالمية، أفاق الكشاف وجعلته، يشعر أن له إخوة في سائر البلدان، وان الفتيان هنا وهناك لمتشابهون، وإذا بأبـــناء أولـــئك الجنود الذين خاضوها منذ حرب إفناء وتدمير، قد اجتمعوا جنبا إلى جبن، من الألفة والإخوة والمحبة ما كنا لنحلم بمثله قبل خمس سنوات"

وتولت بعد ذلك "الجموري " يقام كل أربع سنوات واحد منها في بلد من بلدان العالم

وكـــان "الجمـــبوري عام 1929 ب..دي احتفل به في بركنهيد، من أهمها لأنه أقيم لبلوغ المنظمة الواحـــدة والعشرين من عمرها ، انه المهرجان لم يسبق له مثيل، اشترك فيه خمسون ألف كشاف من أربعين دولة، وزاره الملك، وزراه ولي العهد، وزاره أركان السلطات الدينية والمدنية في إنكلترا

وبهـــذه المناســـبة منح الملك بادن باول لقب ...أهدته الطلائع " غرفة – سيارة" لتنقلاته في زياراته للفرق والمخيمات وفي تجولات استجمامه

وكـــان مسك الختام في " اروبارك" – أي حديقة السهم- وفي مشهد مهيب ،أمام الآلاف المحتشدة من الطلائع، عمد بادن باول إلى فأس ، وقد رمز بها إلى الحرب فدفنها في الأرض، ثم رفع يده بسهام من الذهب لماعة وقال:

" لقـــد أتيـــتم مـــن كل أطراف المعمورة، إلى اجتماع من الأخوة الحقة، واني لمرسلكم الآن من " اروبـــارك" إلى العالم، رسل سلام وأخوة، خذوه إذا ،هذا السهم الذهبي رمزا للسلم، رمزا للصداقة رمزا للأخوة ،ارشقوا به كل الجهات، ليتعلم الناس به الأخوة البشرية"

ودوى البوق ،معلنا ختام " جمبوري بركنهيد"

لم تكن الأبواق كلها، يومئذ أبواقا تعلن انتصار الكشفية لقد كان هناك أبواقا غيرها ،أبواقا الدعايات وأبـــواق الأحـــزاب، وابوق الحزبية على اختلاف أنواعها وقد دوت، تريد أن تغطي بأصواها بوق الكشفية لتجعل منها حزبا من الأحزاب

مـــا إن انتشـــرت الكشـــفية، وذاع لها اسم في كل أطراف البلاد، ومدت جذورها إلى كل طبقات الشعب، فأصبحت تيارا جارفا وقوة شعبية حتى هبت الأحزاب السياسية، والمذاهب الدينية والتعاليم الفلسفية تخطب ودها، تريد أن تحتكرها أن تتخذها مطية طيعة، ومركبا سهلا ، لغاياها

إلا أن بادن باول كان ابعد الناس عن الأحزاب ولقد استطاع أن يرسم لحركته طريقها الخاص الذي لا تمـــت فيه إلى حزب من الأحزاب بصلة وانه لفوز له باهر ناله في هذا الميدان، إذ استطاع أن يرد كل إغراء ويحبط كل مسعى لاستغلال حركته لأغراض حزبية

ومن هذه المساعي ما قام به حزب المحافظين، إذ زعمت إحدى صحفهم، في بحث لها على صفحاها، إن كـــتاب"الطلائع" ليصطبغ بصبغة الحزب ، ويبشر بمبادئه فأجابه مجيب في خبث انه لقادر أن يميل بالكـــتاب أي مـــيل شـــاء، يستدرجه إلى القول بما يريد فيظهره على هواه تارة بمظهر الاشتراكي، وأخرى بمظهر المحافظ وغيرها بمظهر الحر

وقـــام الحـــزب الشيوعي يندد بالكشفية فيزعم أها مدرسة بورجوازية تبث فيما بين الشباب روح الرأسمالية والعسكرية، وطلب سكرتير الحزب الشيوعي حديثا مع بادن باول أراد به أن يزيل عن وجه الكشـــفية، كما زعم ..كل قناع ، وان يفضح من نياها وغاياها ما استتر ،فأجابه بادن باول بقوله:" انـــه أن لشن حربا، وان الحرب لابد لها من اثنين متحاربين وانه هو لا يود أن يخوضها معه الآن، لان غاية ما يتوخاه من الكشفية أن تتيح لكل شاب ، مهما رقت حاله، وضؤلت مواهبه، أسباب النجاح في الحياة بمعزل عن كل نشاط حزبي

وقامت بعض المذاهب الدينية تسعى، من جهتها، لتسيطر على الحركة ،فكان موقف بادن باول منها مـــثل موقفه من الأحزاب السياسية فترك للفرق الكشفية المجال تمارس فيه من الدين ما نشأت عليه، دون أن يشـــدها إلى ديـــن معين و وذهب في رحابه إلى ابعد من ذلك فأراد أن يوسع من أحضان الكشـــفية لمـــن لا ينتمي إلى دين، أملا منه أن ترتفع الكشفية بمثل هؤلاء إلى الله، بما تكشفه لهم في الطبيعة من آياته ، ومن أثاره، وكان جل ما يسعى إلى تنمية في كل طفل تلك العاطفة الدينية العميقة التي تقود إلى محبة الله ومحبة القريب

مـــثل هـــذا الموقف المستقل أثار عليه حفيظة بعضهم، فلم يتوزعوا من اتهامه بالدهرية فكان جوابه مفحمـــا، إذ قال:" أننا نعتقد أن كل طفل يحمل الله في قلبه، وان شر طفل في العالم لا يخلو من بعض الصـــفات الأدبـــية،فهـــو على الأقل، يعجب بالشجاعة، والعدل ، والصدق وله بوادر من الشهامة والكـــرم، فلا يتخلى عن رفيق له في محنة، أنها شرارة من نار تخبو فيه، وتطلب من يزيح عنها الرمد ، وعليـــنا نحن أن نزيح الرماد عما يخبؤ في نفسه من نار الهبة، وان ننفخ فيها من روحنا ،إلى أن تشتعل وتحـــرق كـــل ما حولها من أدران، إننا نقود الفتى إلى الغايات الرهيبة، والى الحقول المزروعة، والى الجبال الشامخة، والى البحار الصاخبة، عله يكتشف قوانينها الأزلية ويطلع على آيات الحياة التي تزخر في حيوها ونباها، ويشغف بالجملات المنبثة في كل نوحيها، فيرتفع بنظره وقلبه إلى الله إلى الخالق"

وليس بادل على هذه الروح في الكشفية من شهادة رئيس ديني كبير هو الكردينال بورن فلقد قال في " جمبوري" 1929 ما يلي:

" لقـــد أولاني بادن باول شرف استشارتي، منذ بدء الحركة ،في مثل هذه الشؤون، فأكد لي انه يترك لكـــل كشاف الحرية التامة ليتبع أوامر ضميره ونواهيه، ويعبد الله على ما يرى، وانه يشجع كل من ينـــتمي إلى مذهـــب أن يعبد الله بمقتضاه، وانه لن يضغط على ضمير ولن يحاول أن يضم جماعته إلى مذهـــب معين واحد يصهرهم به في بوتقة واحدة من الاعتقاد، والآن وقد مضى على حديثي هذا مع بادن بول إحدى وعشرين سنة، أعلن بكل سرور أن لرئيس قد قام في هذا الصدد بما قطعه على نفسه يومذاك من عهد"

لقد استطاع بادن باول أن يدير بحزم وحكمة دفة المركب ،فيسير به، بين مثل هذه الصخور دون ما انحراف أو انحياز، إلى المرفأ الأمين"

الرجل في حياته الخاصة

مـــا كان نشاط بادن باول ،الذي توزع وكما رأينا على ميادين عديدة ليبلبل نظام حياته، فلقد كان مسيطرا على أوقاته،كما كان مسيطرا على نشاطه، وكما كان مسيطرا على ذاته، أنها سيطرة القائد على ميدان الحرب

لقـــد اخـــذ نفسه، منذ أول عهده ، بالنظام والدقة ،فتعلم أن ينتهز الفرص السوانح، وان يستخدم الدقـــائق الضـــائعة، المنثرة، هنا وهناك من يومه، يلتقطها في طريقه قبل أن تعبر كما يلتقط الصياد الطائر في طيرانه، فإذا به يجد لساعات السفر، ولأوقات الانتظار، ولأيام الراحة ذاتها، عملا يملأها به، فهـــذه رسالة إلى أمه دبج يسطرها بينما كان في المعسكر ينتظر سيارة الإسعاف ،وهذه مقالة لم تحل قـــرقعة القطار، دون أن يمعن النظر في موضوعها، ويستوعب أفكارها، ويأتي بها بعد قليل حبر على ورق ،في صـــفحات تامة المعنى والمبنى، من أمثال الكثير مما يكتب أعماله هذه يأتيها في سهولة وفي هدوء وفي أوقاتها،فلا يتركها تتراكم عليه، تعكر صفوه ،تستحثه، وتستسرعه، دون هوادة

كـــان روح النظام هذا الذي ساد حياته، العامل الأكبر لنجاحه فكان به خصب القلم، خصب الفكر ،خصـــب اللســـان، خصب اليد، وكانت له في كل عدد من مجلة " الكشاف " مقالته المنتظرة، يأتي الإدارة بهـــا في يومها فظل ثلاثين سنة يغذي المجلة، ويغذي غيرها من مجلات الكشاف، بعقله وقلمه، وكانـــت له أيضـــا كتبه، ومنها الكشفية ، ومنها الذكريات، ومنها الأسفار، يصدرها في فترات من الوقـــت مـــتقاربة يزين أكثرها بتصاوير ورسوم من ريشته، يغزو بها الأسواق غزوا، فتأتيه بالعائدات والمـــواد الـــتي لا يســـتهان بها، يستعين بها على قضاء حاجاته وعلى نفقات أسفاره في انكلتر، وعبر الـــبحار، وقـــد رفض دائما أن تكون هذه الأسفار على حساب المنظمة، فلقد أراد أن يظل ،حتى في هذا الميدان أيضا مستقلا

وكانـــت له مع جولات القلم ، جولات اللسان، من محاضرات لا تحصى كان يلقيها حيثما حل، في أســـفاره المتعددة وقام عام 1912 برحلة إلى أميركا، واستراليا، ونيوزيلاندا، فكتب بشأنها ما يلي: مما نحن فيه: " لقد سددت نفقات السفر من واردات محاضراتي في أمريكا أما محاضراتي في نيوزيلاندا فقد تركت إرادتها للمنظمات المحلية"

وبعد العمل ،عمل الفكر وعمل الجسم ،الراحة والراحة التي لابد منها للفكر والجسم معا، لاسترجاع القوى، استنهاض الهمم، فكان بادن باول ينظمها، كما كان ينظم كل ما يعمل، يستمتع، بها خالصة صـــافية، وهـــذه "الغرفة – السيارة" التي أهدته إياها الطلائع تذهب به إلى حيث يريد من الأماكن الجميلة، يستمتع فيها بالمشاهد ، وبالراحة وقد كتب عن إحدى رحلات الاستجمام هذه يقول:

" بيـــنما كنت أتأمل في مناظر الطبيعة ،كنت التقي هنا وهناك و بمخيمات للطلائع، أو للمرشدات، كمـــا وكنـــت التقي ببعض الجوالة، أفرادا وأزواجا، يضربون في رحاب الأرض، مشيا على الأقدام، وقـــد لوحـــت الشـــمس منهم الوجوه، فكنت أقول في نفسي: حسب الكشفية فضلا أنها بعثت في الشـــبان روح الـــتجولات الحرة الطليقة، تلك التي تنشئ الرجل القوي المقدام، وأنها لفاعلة أكثر من ذلك: فهي تهذب الذوق، وتنمي حاسة الجمال، وتشد فيما بين الأفراد بأواصر الصداقة والأخوة وان الطلائـــع إذ أهدتـــني هـــذه " الغرفة –السيارة" لتجهل، دون شك كم سببت لي بها من أفراح ومن متعات"

ولـــبادن باول بيت خاص يأوي إليه، وحياة خاصة يعيشها فيه، ككل إنسان وإننا لنود أن نرى رجل الأعمـــال والأسفار، رجل الحفلات والاحتشادات رجل الطلائع والمخيمات ،رجل القلم والمنابر – نود أن نراه في بيته مع ذويه نلقي عليه نظرة من شباك حياته الخاصة

وإننا لنتوقع أن نرى له هنا أيضا، ما يعجب ويخلب، من منظر للرجل والإنسان معا

كـــان بيـــته " تـــاكس هل" محجة علية القوم، ومحط رحالهم، من رجال ونساء، من أصدقاء قدماء يـــزورون صـــديقا لهم لا يزال معهم على عهده من الوفاء، ومن كشافين ومرشدات يتعرفون على الكشـــاف الأول والمرشـــدات الأولى،يضـــربون خيامهم بجوارهما ،أو يترلون ضيوفا في دارهما على الرحب والسعة

ولقد استطاع بادن باول ان يبني له مع امرأته، في هذا العصن العائلي، حياة داخلية توفرت له فيها من أسباب السعادة ورغد العيش ما شهده كل زائر، من وجوه مشرقة تطفح صحة ونقاء، ومن أحاديث مبهجة يشترك فيها العقل والقلب معا في جولات من الجد والمرح، ومن أعمال بيتية يسعى إليها كل مـــن في البيـــت من ضيوفه وأربابه، لا تلبث أن تتحول إلى متعة ولذة، وهاهي ذي الحديقة الجميلة ينتشرون في أطرافها، ينكب كل منهم فـــيها على عمل فهذا يشذب شجرة وذاك يقص سياجا، وأخر يحرث أرضا، وغيره يزرع وينظف ،وقطع، ويسوي هذا لممشي، ويطعم تلك لوردة

وفي المساء بعد نهار مليئ بشتى الأعمال، يجتمعون كلهم حول رب البيت وربته، في سهرة سمر طويلة، يـــدور الكلام فيها عن كتاب صدر أخيرا يبحثون في مواضيعه، وعن فلم أحدث ضجة ينقدونه وعن ذكـــريات الماضي وعن أحاديث الشعوب وأساطير .... في كل الأقطار – يعرض لهم فلما التقط هو صوره، وقد أصبحت السينما له هواية جديدة، ويبسط لهم مجموعاته من رسوم له طريفة نثر أكثرها في كتـــبه ومن روائع للفن حولت بيته شبه متحف، أتته من أسفاره ، ومنها ما اقتناه بماله، وأكثرها هدايـــا من المعجبين به ولكل من هذه الكنوز والتحف حكاية، يرويها بادن باول كمالا يرويها راوية غيره، بأسلوبه الساحر، فتمر الساعات معينة سريعة، ولذيذة يحفظ لها الزائر أطيب الذكر

وفي هــــذه الزحمة من الزوار الطارقين كل يوم بيته، وفي هتافات الإعجاب الحب تتعالى إليه من كل حشـــد ومجـــتمع وفي ذروة الفوز الذي كلل في حقل الكشفية كل مساعيه، في هذه الظروف كلها خطر له أن يستقيل

وراودتـــه فكرة مدة في شتى من الإلحاح، وفي اعتقاده انه لا يقوم بما يتوجب عليه من مهام الرئاسة، وفي نظره انه لم يعد له من همة الشباب وقوته ما يستطيع معه أن يتابع العمل على الوجه الذي يريد، وان الرئاســـة في منظمة ليست مكافأة على نجاح، ووقفا على شخص أنها خدمة يقوم بها من هو بها أجـــدر، وان الرئـــيس مهما كانت مكانته من جمعيته ، يجب عليه أن يتنحى على الرئاسة لغيره حالما يســـتقر له و لم يعـــد يصـــلح لها، فلقد حان له على زعمه، أن يترك دفة المركب بين يدي جيل من الشـــباب جديـــد وانـــه لـــيكره أن يظل الشيوخ طويلا في وظائفهم يتمركزون فيها إلى الأبد ولا يتزعزعون عنها

اعتبارات لاشك قيمة، إلا أنها لا تنطبق على بادن باول ولهذا فما كادت الفكرة ترشح من مستشاريه والمقـــربين إلـــيه، إلى غيرهم من أركان الحركة وقادتها حتى هبوا رجلا واحدا، يعلنون تعلقهم به ، مصرحين له بأنه خير ربان لسفينتهم ولا يرضون عنه بديلا

إلا أن الفكـــرة دلـــت على أن بادن باول يشعر بالواجب شعورا عميقا قويا لا يقبل فيه بالتمويه ولا المســـاومة كما ودلت أيضا على أن بادن باول لتواضعه، لا يقدر مدى ما يحتمه في القلوب من حب وإعجاب

لكأنه الكشفية ولكأن الكشفية بادن باول

الجوالة على طرق العالم

لم يستقبل بادن باول إذا،بعد ما رأى من مقاومة الجميع للفكرة ما رأي، إلا انه اخذ يهتم بأمر من يخلفه يوما على راس الحركة، ولقد جاء، المرسوم الملكي، الذي اعترفت به الحكومة بالمنظمة، مقتضيا في هذا الشأن لا ينص على أكثر من أن الكشفية إدارة عليا يرئسها بادن باول فكان لا بد له إذا، وقد اخذ يتقدم في السن، من الاهتمام بالموضوع، وكان يرى أن ما ورد في المرسوم الملكي بهذا الصدد ليس بكاف لسير الحركة وليس بضامن لمستقبلها وقد كتب يقول عام 1930 " لن تستطيع المنظمة مواصلة الطريق إلا إذا كان على رأسها ليس فقط إدارة عليا يقودها سكرتير عام، بل رئيس أعلى يطبع الكشفية بطابعه الخاص، ينفحها به الروح والحياة، وكأنه يريد أن يقول أن الكشفية كائن حي يحتاج إلى شخص حي أكثر منه إلى إدارة ، ولقد ورد اسم اللورد سومرس، للمرة الأولى ،في هذه الرسالة كالرجل الجديد بان يخلف يوما بادن باول ثم توقفت القضية عند هذا الحد

والحقيقة أن من نظر يومذاك إلى بادن باول، وقد جاوز السبعين وهو يذهب ويجئ وفي إنكلترا وفي ما وراء البحار ، ينتقل في بلدان العالم ، يزور ويتفقد ويحاضر وينظم تاركا وراءه، حيثما حل، نارا مستشية من فوق تتجدد،وفرق تنبعث ،وفرق تتنظم..من نظر إليه وهو يزخر، عقلا وقلبا، بهذا النشاط العجيب ، لا يخطر له ببال أن وقته قد ولى، وان الساعة قد دقت لاختيار خلف له ، فلقد بدأ عهدا من الأسفار كما لا يباشر مثله إلا الشباب فكأنه لا ينفك يتجدد، وكان الكشفية تنقحه في عروقه كل يوم دما جديدا

ولم يقتصر في أسفاره على زيارة البلدان التي أوسعت للكشفية صدرها، فلقد زار حتى البلدان التي استبدلت الحركة الكشفية بمنظمات الشبيبة النازية أو الفاشتية، كألمانيا وايطاليا، لقد كان واسع الانفتاح على العالم يريد أن يطلع على كل ما ينشأ فيه من حركات في تربية الشبيبة ،ليتمثل ما فيها من صالح ليستلهمها في ما يبغي دوما لحركته من تطور وتجدد

وهاهو في روما، فيزور مع فرقته قداسة البابا، وقد عرف ما يكنه له ولحركته من تقدير وإعجاب

وهاهو في مكتب موسوليني أنهما وجها لوجه مؤسس الكشفية ومؤسس "الباليلا"

ويسأله موسوليني عن رأيه في " الباليلا" فيجيبه بادن باول بصراحته المعتادة، بأنه يأخذ عليها مآخذ أربعة:

1. أن حركة الباليلا حركة إجبارية ولا اختيارية
2. أنها تسعى إلى خلق وطنية ضيقة، بدلا من أن تهدف إلى ابعد من ذلك ،من بث روح التفاهم بين الشعوب

3. أنها لتكاد تقتصر على التربية الجسمية، فلا تتسع لغيرها من التهذيب الروحي
4. أنها أسلوب من التربية الجماعية ،لا تهتم بالفرد وبما في الفرد من طبع وخلق

ولم يكـــن موسوليني يومئذ ليلين له عود فافترقا ولكل منهما في الموضوع رأيه ولم يدل حديث عار منه شيئا

وزار النمســا، وكانــت يومئذ مستقلة فجرى له فيها، في عاصمتها وفي مدنها الكبرى، استقبالات كشفية رائعة دلت على ما للحركة فيها من تقدم وازدهار

وزار سويســرا عــام 1931 لحضــور "جمــبوري الجوالة" وقد أتوا من اثنين وعشرين دولة ، إلى كندرســتغ، حيــث يقــوم منذ 1923 البيت الدولي للكشاف" وكان لمنظر هؤلاء الشبان، الذين ترعرعوا في ظل الكشفية يخيمون في الأعلى ، ويتسلقون كل شاهق ،أعظم الأثر في بادن باول فكتب يقول:

"هــناك في جــبال سويسرا، كم نحن بعيدون عن العالم ومن شرفة بيت الكشاف أرى أعلام اثنتين وعشــرين دولة، تخفق فوق الخيام، وحول نيران المخيم، أنهم ثلاثة ألاف شاب جوال، أو بالاحرى ثلاثــة ألاف مــن فرق هجوم جيش المليونين من الطلائع، ولا سلاح إلا عصي الجبال، ولا نظام إلا الإرادة الصادقة، ولا استعداد للسلم العالمي

أنهــم هــنا في هــذا المؤتمر وقد وقفوا وقتهم ومالهم ليدرسوا بجد الشيوخ ورصانتهم، وسائل نشر الكشفية وخدمة المجتمع ،وفي المساء إذ يلتفون حول نار المخيم ،ينقلبون أبهج شبيبة رايتها في حياتي ، أنهم خليط من شعوب العالم، يتكلمون كل اللغات، وكل اللهجات إلا أنهم يتفاهمون، كما لا يتفاهم إلا القليلون غيرهم

لم تعــد الكشفية إذا ملهاة يتلهى بها الأحداث في أوقات فراغهم لقد اخذ الوالدون وجمهور الشعب يفقهــون معــناها، ويعون فوائدها، ويقدرون، أساليبها، لتنشئة القوى الروحية والجسمية ،في الفتى والفتاة

أمــا أروع مــا رأيت ، فمنظر انطلاقهم، والعصا بيدهم، والكيس على ظهورهم ، يتسلقون الجبال المجــاورة، لــيس هذا التجمع من الشبان ينعقد في المدينة، من المعنى مثل ماله هنا، في الجبال المكللة بالــثلوج، أنها هنا دعوة إلى الارتقاء، إلى التسامي، أنها توحي إليهم بوجود الخالق العظيم في جو من الصفاء لا تشوبه من الإنسان والمدينة شائبة"

وزار المجــر عام 1933 لحضور الجمبوري العالمي الرابع" في كودولو وكان الكونت تيليكي، رئيس كشــاف المجر، يستقبل وفود اثنتين وثلاثين دولة، وهولا يحسب لتقلبات الدهر حسابا، ولا يدري ما تخبئه الأيام له ولبلاده من أحداث

وزار دول البلطـــيك، وكانـــت هي أيضا يومئذ مستقلة فجرى له فيها مثل ما جرى له في غيرها من الاستقبالات الحارة، قامت بها الفرق الكشفية الناشئة أظهرت فيها من الحيوية ما أثلج قلبه

وزار الهند- قد زارها مرار عديدة، ومكث فيها طويلا – وهو في زيارته هذه يسعى لجمع الكلمة بين مخـــتلف الفـــرق الهندية ،ليوحد فيما بينها ويضمها إلى المنظمة العالمية، ولقد توصل إلى ما سعى إليه، وهـــاهي ذي الســـيدة الهندية إلي بيزانت، التي جمعت في حركتها خمس وعشرين ألفا من الكشافين والمرشدات ،تبرز وعدها بين يديه فيقلدها وظيفة مفوض شرف الهند

وهـــناك في كاليمبونغ من جبال حملايا، فرقة من الكشافة تحتفظ بصورة لبادن باول وقد كتب تحتها بخـــط يده العبارة التالية:" إنكم تحتلون بين طلائع الهند، أعلى نقطة من مخطط بلادكم، ليتكم ترتقون بـــأخلاقكم إلى مثل هذا العلو" وعندما قامت حملة الجنيرال بروس تحاول بلوغ قمة ايفرست، كتب بـــادن باول إليهم يقول:" ستمر الحملة بالقرب منكم ،تحاول ارتقاء جيل ايفرست، واني لا اشك أنها ســـتثير إعجابكم، فإنهم يقتحمون بحزم وشجاعة أعلى قمة في العالم، ولقد حاولوا أن يتسلقوها من جهات عديدة، فلم يفلحوا وهاهم الآن يعيدون الكرة من جهة أخرى، دون أن توهن لهم عزيمة، إنهم لقـــدوة لنا جميعا في ذلك ، فإذا ما قامت يوما في سبيلكم عقبة فاقتحموها دون خوف، مهما كانت كبيرة وإذا ما أخفقتم مرة، فأعيدوا الكرة مرة أخرى، حتى تفلحوا أتمنى لكم أن تقضوا أطيب مخيم"

وزار أفريقيا الجنوبية ، وقد زارها هي أيضا مرارا وقضى فيها جنديا مدة ليست بقصيرة – وكان معه امرأته وأولاده واليك وصفا لأفراح عيد الميلاد المجيد، وقد قضته العائلة هناك قال:

"اســـطر رسالتي هذه في صباح عيد الميلاد بينما أفكاري تطير بي إلى إنكلترا ،حيث لي من الأصدقاء مـــالي، ومـــا إن أفقت، حتى تساءلت: أين أنا؟ فلقد كان البحر يتكسر على الصخور تحت نافذتي وكانت أضواء الصبح تنير السماء بأنوار وردية، وكانت تطرق أذاني أصوات غريبة مرحة، هي لبعض الفتـــيان الذاهـــبين ،والكيس على ظهرهم، إلى مخيم العيد، ومن فراشي أرى البحر يمتد صافي الأديم، تحت سماء صافية الزرقاء، الى حيث يمتزج بجبال جزيرة تقع على ثلاثين كيلومتر من الشاطئ

وكانـــت البادرة الأولى أن التقط على الورقة ألوان الغسق اللطيف المتماوجة وكانت البادرة الثانية أن اخذ من السلة دراقة جميلة واعمل فيها أسناني، وأنا اشعر أني أكاد اقترف إثما، إذا نشب أنيابي في هذا الـــلحم الطـــري مفضلا طعمه اللذيذ على رائحته العذبة، ولقد قامت يوما بيني وبين ابني بيتر مشادة حول الدراقة، هل نحن أكلوا الدراقة أكلا أم شاربوها شربا.؟

وأخـــذت :سمـــع مع الغرفة المجاورة حركة مخنوقة، وجلبة أصوات خافتة، فلقد أفاق الأولاد واخذوا يـــثرثرون عن العيد، وعما أتاهم به العيد من هدايا لم يكن هناك من صنوبر نزين به الغرفة، كما انه لم يكـــن هناك من مدفأة يمر الأب نويل بها إلينا بهداياه، ومع ذلك فلقد أتى لا تدري كيف، وملأ الجرابات التي علقها أصحابها له، و لم يلبث أن اجتمعنا جميعا فرحين ،نفتح العلب ونفك اللفائف ..

وهاك رسالة أخرى من أفريقيا تصف ما تركته فيه زيارته لها من اثر :

" لم أكـــن لأتصور مدى ما ستفتح علي زيارتي لاماكن محبوبة من معان، وما ستثيره في من ذكريات فهـــناك الكشـــافون والمرشدات وقد متدفقوا على من كل جانب وهناك المئات من الشرطة وقد أتوا يحـــركون في قلـــبي أوتار الماضي، وهناك جنود حامية مافكنج القدماء وقد جاءني بعضهم وكتب لي بعضهم وهناك من خدموا تحت رايتي في حملات المتابلة والزولو.."

وزار استراليا ،عام 1934 وهو في السابعة والسبعين ليشهد جمبوره مليورن" وقد كتب عنه يقول:

" في بلـــد لم تخمـــد فيه بعد مشكلة الأعراق والأجناس استقبل الكشافون في "الجمبوري " كشافي مختلف الأجناس، ومن بينهم من دوي اللون الأسود، بكل تأهيل وترحيب، وقد رأوا فيهم ما حببهم إلـــيهم، من تنظيم ولطف معشر وأدب سلوك، ومهارة أصابع وسعة إطلاع في علوم الغابة وفي ليلة لبلاء ، اذهب على الناحية إعصار شديد هطلت الأمطار فيه بغزارة ،لم يقتلع لهم وتد ولم تسقط لهم خيمة"

وزار كـــندا، والولايـــات المـــتحدة ونـــيوزيلاندا وسيلان وملازيا ومصر وغيرها، والتقى بكشافين ومرشـــدات مـــن كـــل الشعوب من مصريين وأقباط وأرمن وعرب ويونان ويهود وهنود وصينين ويابانين وغيرهم مما يطول بنا تعدادهم

وفي خـــتام إحدى جولاته حول الأرض أصدر كتابه " الكشفية في العالم" أتي فيه على ذكر ما شاهد في أسفاره من أوصاف وحوادث وبلاد بأسلوبه الشيق الممتع، وكانت أكثر البلدان التي وصف زيارته لها، قد عرفها عن كثب فلقد زار منها كندا خمس مرات :وأفريقيا الجنوبية ثماني مرات انه كان على اتصال دائم بالرسائل وبالزيارات ،مع أكثر أقطار العالم

لم تأت الأسفار بنت ساعة، جولة من اللهو والمتعة، يستجيب فيها لخاطر طارئ أو لهوى عابر يباغت بها الفرق مباغتة، لا يستقبلونه فيها إلا بالمظاهرات الفارغة

لقـــد كـــان يستعد لها ويهيئ أسبابها، لتعود عليه وعلى الحركة جمعاء بالفوائد المبتغاة ، وهذه رسالة كتبها قبل جولة له في عام 1931 يقول فيها لأحد الفرق:

" لا أريد أن يكون "الرالي" حافلا بالمظاهرات الرسمية، بل بالأعمال الكشفية وهذه لن تنجح إلا إذا ارتـــدت لوننا الشخصي الخاص الذي به وحده أستطيع أن احكم على روح الطلائع وعلى صفات رؤسائها واني لا كره أكثر ما كره محاكاة العروض العسكرية التي لا تترك لاجتهاد الرؤساء من مجال، وتموه على الحاضرين الحقيقة بالمظاهرات الرخيصة وأود، عندما سأخاطب جمهورا من الشباب أن لا يـــتخلل صـــفوفهم أحـــداث الطويلة أن الهدايا ، في مثل هذه المناسبات تتدفق كالسيل تدفقا إننا أنا وامـــرأتي، نعـــرف مدى محبة الرفاق لنا دون أن يحتاجوا للتعبير عنها إلى بالهديا، وأمل أن لا تأخذوا كلامي هذا على مأخذه من العوطف والنيات، كما وإنني اعرف مدى قواي وأنا في الرابعة والسبعين

مـــن عمـــري ولذلك فلي إليكم رجاء ، وهو أن لا تحملوني من الالتزامات والمواعيد مالا أطيق وما لامناص لي من الإخلاف عنه "

وهذه جريدة " سدني" الاسترالية تصف لنا مخيما زاره قالت:

كان بادن باول يتسلق المرتفعات، ويهبط النحدرات، ويسلك المسالك الوعرة الموحلة، بخفة الشباب، وكـــان نظـــره يسرح فيها حوله، ينظر إلى الجسور التي مدها الكشافون، والى الجبال المنعقدة حول عصـــيها عـــلى بـــاب أو مقعد والدرجات المنحوتة في الصخور والأبواب المزينة بأغصانها الخضر، وقساطل المياه، وموقد الطبخ، ومضارب الخيام، ومراقد الليل وغيرها من مجالي نشاط الكشاف

وكانـــت الشمس ،عند وصوله قد مالت المغيب، وبينما كان يتنقل من مكان إلى أخر يزور الأمكنة الثمانـــية والأربعين التي تألفت منها المخيم، كانت الأنوار تنبعث هنا وهناك من جوف الظلمة الهباطة ورائحة المشاوي تملا الفضاء والقدور على نيرانها تغني وتثرثر..

وقامـــت في وسط سهل، كومة حطب أعدت لسهرة نار المخيم وطلبوا من بادن باول أن يلقي فيها النار، وأشعل بادن باول العود تلو العود من الثقاب، إلى أن اضطر أخيرا إلى إشعال النار ببعض ورق الجـــرائد والمعـــروف أن الكشاف لا يستخدم لإشعال أكثر من عودين والتفت بادن باول إلى امرأته خجلا:

لقد أشعلت أكثر من عودين

يا للهول

و لم يعـــتذر بادن باول كغيره :قائلا: انه لم يعد هو كومة الحطب ،أو لم يكن الحطب يابسا، وما إلى ذلك

وفي خـــتام الحفلة ألقى بادن باول كلمته :كالمعتاد فقال: انه عندما رأى الكشافين يسيرون في العرض يومـــي الجمعة والسبت ساورته المخاوف فيهم، من أن يكونوا من كشافي الصالونات والمظاهرات ، لـــيس إلا، أمـــا وقد رآهم في ميدان العمل ،في مخيمهم، فانه ليعلن بكل سرور إنهم بلغوا من صفات الكشفية ومن علوم الغابة مبلغا.

السنون الأخيرة

لم تـــثن الشـــيخوخة من عزمه فظل يسافر حيث تستدعيه مهام الكشفية ترافقه دائما قرينته تشاركه الأعمـــال توقم بها في حلقها من المرشدات كما يقوم هو بها في حلفه من الطلائع وأنها لشركة خصبة ظهرت باجلى مظاهرها في السنين الأخيرة من حياته

ورحل الزوجان الرئيسان عام 1936 إلى الهند حيث شهدا" الجمبوري الأول لعموم الهند" فكانت مظاهـــرات اتحـــاد رائعة طلما سعى بادن باول الهيا في الماضي، إلى أن تحققت أمام عينيه، في عرض لأربعة ألاف كشاف أتوا من كل أطراف الهند، وصفه في تقرير له بما يلي:

" أنها لوحدة في تنوع مظاهرها، من فرق لمختلف المقاطعات بألبستها الخاصة ،ومن أغان شعبية بكل اللهجات ومن رقصات طريفة على الطبول هذه الطبول لقد سحرتني ، ولكل فرقة طبلها، ولكل فرقة طريقتها في عرقه"

بـــدأ بـــادن باول حياة الجندية في الهند وختمها في الهند فلقد كانت الفرقة الثالثة عشرة للخيالة، هي فرقته، ترابط في ويزلبور فأحتفل بين جنودها بعامه الثمانين، لبس البزة الرسمية للخيالة ،للمرة الأخيرة واستعرض الفرقة وهو على جواده، وأحس بالشباب يعود إليه فكتب يقول:

" شعرت بأنني رجعت أربعين سنة إلى الوراء انه أخر عرض استعرضه على صهوة جوادي"

وقفـــل في أب راجعا إلى أوربا ليشهد "الجمبوري العالمي الخامس" الذي احتفل به في فوكلسانغ، في هولندا، بحضور ثمانية وعشرين ألفا من الطلائع ينتمون إلى إحدى وثلاثين دولة، وكانت كلمة بادن باول في حشدهم بمثابة الوداع الأخير:

" لقـــد حـــان لي أن أودعكـــم، إنني أتمنى لكم حياة سعيدة لقد بلغت من عمري الواحد والثمانين واقترب اجلي، بينما انتم في مستهل الحياة باركـكم الله، وعشتم سعداء "

وعـــاد إلى أفريقـــيا الجنوبـــية ليتفقد الفرق الكشفية فيها، وقد اخذ تطاحن العناصر يزداد شدة حتى ليطغوا على كل مرافق الحياة، إلا أن قواه خانته، فقصد كينيا ليقضي الشتاء في جوها اللطيف، وراقته البلاد، فقرر أن يقتني له فيها بيتا يقضي فيه أواخر سني حياته، وكتب يصف أيامه فيها:

"ما ألذها من حياة حلوة، اقضي لساعات منها على الفيرندا، اطل منها على بستان جميل تعمره أنوار الشمس وتوشيه الزهور، وينجاوزه النظر إلى غايات شاسعة لا تنتهي إلا عند قمة جبل كينيا الأبيض وســـألني الطبيب فاحصا: كيف قضيت السنة الماضية ؟ فأخذت اسرد عليه حوادثها : من "جموري ' هنا ومن " رالي" هناك ومن اسفار ورحلات وحفلات ...

وصـــرخ الطبيب :انك لتستحق كل ما حل بك من أمراض طالما تسير، وأنت في الثمانين ،هذا السير مـــن العيش فطمأنته قائلا ..الذروة بلغتها ، إذ قد تحقق لي كل ما حلمت به في الكشفية وفي العالمية فأصـــبحت أبا وجدا وعشت جنديا وكشافا وبدأت الآن المجلد الثالث من كتاب حياتي " ذلك الذي أعول فيه على الطبيب ينهج بي فيه نهجه ، ويخلق مني ما يريد "

وكـــان يوزع وقته بين الصور، والكتب، والبستان، والرسائل، هذه الرسائل التي لم ينقطع عليه يوما سيلها، و لم يترك واحدة منها دون جواب

وأصـــدر في تلـــك الفـــترة ثلاث كتب للأحداث هي :" طيور وحيوانات من افريقيا1938" سر بمركبك "1939 " سور من كينيا"1940 وقد زينها ، كما زين كل ما أصدره من قلمه من كتب بالرسوم الجميلة من ريشته منها للأسنان ومنها للحيوان ومنها للطبيعة

ونشبت الحرب العالمية الثانية وهو في كينا فاتته ضربة قاضية على أماله ، وتشتت شمل شبابه، و..ف ط عقد أكثر فرق الطلائع والجوالة فكان يرى عمله يتهدم وينهار دون أن يستطيع أن يمد له يدا

وأخذت قواه تنحط وتنهار، حتى لم يعد بقادر على غير الرسم والكتابة فكان أخر ما استطاعت يداه الضعيفتان وهذه بعض ما خطتا من اسطر أخيرة :

" أني مستلق على فراشي لا أتي عملا، وانظر إلى كل من حولي يعملون.."

ومات في الثامن من كانون الثاني من عام ألف وتسعمائة واحد والربعين، وهو الآن يرقد في كينيا في بقعة يطل عليها جبل كينا الأبيض في بلد أحبه وأحب سكانه وأحبه لوطنه وأهله

لقد حان أن يحط الرحال ويستريح

لقد مات بجسمه القاني، ليعيش في التاريخ وفي الشبيبة –وما دام في العالم شبيبة – خالدا.

الكلمات الأخيرة

هي رسائل ثلاث وجدت بعد موته بين أوراقه كتبها بمثابة وصيته الأخيرة للطلائع والمرشدات وعامة الشعب

رسالة إلى الطلائع

هـــذه أخـــر رسالة لي إليك، أيها الكشاف لقد سعدت جدا بحياتي، كما ارجوا أن تسعد أنت أيضا بحـــياتك، لقـــد وضعك الله في هذا العالم لتكون سعيدا وتتمتع بالحياة ، هذا اعتقادي لكن السعادة ليست بالغنى، أو بالنجاح، أو برغد العيش، انك لتواصل حقا إلى السعادة إذا ما نشبت صحيح الجسم قويا نافعا، فتتمتع هكذا بالحياة عندما تبلغ مبلغ الرجال، وان درسك الطبيعة ليكشف لك عن خلائق الله جمـــيلة عجيـــبة وهو إنما خلقها لتتمتع أنت بها اكتف من الأشياء بما بين يديك واستخدمها على أحسن وجه، أنظر من الأشياء إلى وجهها الجميل لا إلى وجهها القاتم، وأسهل الطرق إلى السعادة أن تنشرها فيما حولك وتسلك بها إلى غيرك، وليكن العالم عند مغادرتك إياه أحسن مما كانت عليه قبل أن تدخله وعندما تدق ساعة الأجل وتموت سعيدا إذ تشعر انك ما أضعت حياتك ،وانك قد عشت على أحسن ما تستطيع، عش إذ سعيدا ، ومن سعيدا بما أبرزت من وعد كشافي حتى ولو .. أشدك والله نصيرك ، نعم الوكيل

رسالة إلى المرشدات

إنهـــا وصـــيتي الأخيرة إليك ، أيتها المرشدة تذكرك، إذ أكون قد غادرت العالم، أن غاية حياتك أن تسعدي ،وان تسعدي ، ما أسهل ذلك ،وما أحلاه، فهناك من الوسائل العمل الصالح اليومي، تجلبين بـــه السعـــادة إلى الغير وبينما أنت تسعين بالسعادة إلى الغير، إذا بها تأتيك عفوا، دون أن تقلقي لها كـــثيرا، وعندما تبنين في المستقبل بيتا فليكن البيت مشرقا مبهجا، يهنأ فيه زوجك لو كانت البيوت كـــلها مشـــرقة مـــبهجة كما ذكرت، لما وجدنا هذا العدد العديد من القهاوي والملاهي ولما هجر الـــرجال بيوتهم إليها، هل تحسبين ذلك شاقا؟ لا بأس فانك لن تلبثي أن تسلى تعبك بما تفوزين من مكافـــأة اعتني بأولادك وسهري على نظافتهم وسلوكهم ووفير لهم أسباب العمل ،تدخلي إلى قلوبهم السعادة، ولأولاد سعداء لجمال ..هم ويا لفرح الوالدين بمثل هؤلاء الأولاد ، أنها إرادة الله أن تكون في هـــذه الدنيا سعداء، فلقد وضعنا إليه في عالم يطفح بالجمالات والروائع و..بالأعين لكي بها نراها ، وبالعقل لكي به تفهمها ، على أن ننظر إليها هذه النظرة الصحيحة كما ننعم بالنور